جعفر الديري

النافذة كانت مشرّعة

مجموعة قصص

جعفر الديري

النافذة كانت مشرّعة

مجموعة قصص

الإهداء

لذكرى عظيم علّمني كيف أكتب حرفي الأول

البئر

دقائق معدودة تفضّل بها رغم مشاغله، لم أتوقع أن أحظى بها...

- في بيته فقط تبدو الأشياء على حقيقتها

ذلك ما أخبرني به الحاج صالح الفرّاش...

- وماذا أيضاً؟

ابتسم..

- عليك أن تكتشف الأمر بنفسك.

ساعتان من المشي السريع، في أزقّة موحشة وطرق غير معبّدة، والطقس شديد الحرارة كثيف الرطوبة، ورغم ذلك كنت مستعداً للمشي أكثر، طالما أن فرصة النجاح، أكبر من سابقاتها.

لابدّ من كشف سرّ ما حدث، لا يمكن للمسافة أن تتقلّص إلى الحد الذي يعجز فيه الجميع، ربما لو وقع من على ظهر الحصان لأمكن تعليل الأمر، طالما أن سهام الموت لا تخيب، أمّا أن ينتهي مرّة واحدة، فذلك أمر لا مندوحة عن الخوض في غماره.

رأيت الرجل يتقدم نحوي، طويلاً شديد السمرة، يمسك بيده سبحة، تتحرّك حبّاتها بتؤدة، بينما تنطق شفتاه بكلمات لا أكاد أسمعها...

- السلام عليكم
- وعليكم السلام
- أخالك تبحث عن منزل الشيخ؟
- نعم.
- أجئت مغتسلاً؟
- نعم.
- راجلاً دون سيارة؟
- نعم.
- كم قطعت من وقت؟
- قرابة الساعتين
- هل ردّدت ما علّمك الحاج صالح؟
- نعم.

– اتبعني بارك الله فيك.

كم من الوقت يلزمني للتعرّف على البئر؟ هل أنا مضطر للنزول، أم يكتفي الشيخ بقطرات دون البحر؟!

صغيرة، بسيطة، بطلاء أبيض، ولا أحد بالقرب منها، أدهشني ذلك، توقّعت أن لا أجد موضع قدم، لا أحد سوى رجال جالسين على مقعد خشبي بين نخلتين، يلوِّحون من بعيد، تطلّعوا إلي برهة وعاودوا حديثهم...

– من هنا بني؟

صحوت على صوت الرجل، تقدّمت إلى الباب، كفّ خشنة على كتفي...

– المرة الأولى هي الأصعب، تحلّى بالعزيمة، ستجد سلّماً يفضي إليه...

فتحت الباب فسرى تيّار هوائي مفعم بشذى لم أشمّه من قبل. وضعت قدمي على أولى درجات السلّم، وصلني صوته: «سبّوح قدّوس ربّ الملائكة والروح، رحيم الدنيا ورحيمهما ورحماني».

كم من الوقت استغرقت حتى عبرت درجات السلّم؟ لا أعلم. صحوت على وجه أشبه بالمصباح نوراً، وعلى عينين مهيبتين تطالعاني بمودّة، وعلى يدين قويّتين ترفعاني عن الأرض.

دخلت الغرفة، كانت صغيرة، في الجدار المقابل للباب، نافذة تنفتح على مشهد جميل، نخلات طوال ثلاث يتشابك سعفهن، وراءهن البحر أزرق هائل، أما في الداخل فلا شيء سوى سجّادة للصلاة، والقرآن الكريم، وكتاب أدعية.

حسبته عملاقاً، يعيش في قصر فخم، يحوطه الحرّاس، يكدّس النساء بالعشرات، لماذا لم يخبرني الحاج صالح بشيء عنه؟!

– إنه أقرب إليك ممّا تتصور.

– دلّني عليه.

– الحرص واجب.

– أتخشى أن لا أصون السر؟

– سبحانه وتعالى هو الأعلم بما في الصدور.

– امنحني عطفك.

– قرأت لك المكتوب أمامي.

– لكنك شفيت صدور الكثيرين؟!

– وحده تعالى من يشفي الصدور.

– أتيتك باحثاً عن حلّ للغز.

– وقد أعطيتك مفتاح حلّه.

– ولماذا لا تشفي غليلي وتعطيني الإجابة؟

– أنا لا أهب إجابات.

– امنحني فرصة ثانية.

– حتى يأذن مولاي...

خرجت من الدار، كما دخلت؛ رأسي مثل مرجل يغلي، كان الرجل شديد السمرة، واقفاً وراء الباب، أخذ بيدي، كأنني مريض ينتظر زوال أثر المخدّر...

– لم يقل شيئاً.

– لست مخوّلاً للحديث معك.

– لكنك تحدّثت...

– ليس بعد دخولك إليه.

قطعت الطريق نفسه، بخطوات ثقيلة، تكاد لا تقوى قدماي على حملي. كنت محبطاً، أشبه بفلاح خاب أمله في سحابة. لعنت نفسي والناس، وكل شيء قابلته.

نازعتني نفسي إلى الكأس، أمسكت بالجوال وأمرتها بالحضور!. قضيت بقية اليوم وليله معها ومع المجموعة، كان سعيد ضمنها. يأس، خواء، انصهار حتى الذوبان، والأبواب جميعها موصدة أمامي، ولا بصيص ضوء ينير لي الطريق.

شربت حتى الثمالة، تقيّأت ما شربت، ضحكت حتى امتلأت عينيّ دموعاً، عاودتني نوبة السعال، قوية ألقتني إلى الأرض.

كانت تجلس قرب فراشي، حين طلب منها أن تتركنا لوحدنا...

– لماذا تصرّ على تعذيب نفسك؟

– وما شأنك أنت؟

– ألست ابن عمك؟

– ابن عمي.. وماذا فعلت لي؟!

– عدنا إلى أحاديثك الكريهة؟

– أنت تأكل وتشرب و...

– وتنام وتلعب دون أن تدفع فلساً واحداً!

– أليست هذه هي الحقيقة؟

– لا... ليست هذه الحقيقة

- ماذا إذن؟

- الحقيقة أنك لا تطاق، أعمى لا تبصر، ولا تفقه حديثاً.

- ماذا تقول؟

- نعم... لو كنت تبصر، لأدركت أنك لا شيء من دوني، انظر حواليك، ستجد أنني من يدير كل شيء، فيما أنت عاجز عن تغيير ملابسك.

واقع صعب، لكنه حقيقة لا أستطيع مواجهتها، لاأزال في حاجة إلى عكّاز أتوكأ عليه! نسر أعمى، لا يمكنه ترك عشّه، مهيض الجناح.

أيتها العزيمة، هبيني خيطاً من ردائك، أنسج منه ثوباً يقيني التيه، لا تتركيني أدفع لوحدي ثمن ماض لست سوى ظل فيه. تتبدّى أمامي أشكال شتى، ملامح وجهه بعيدة بعد قلبي عن الراحة، لكنها تدفع بي لاقتحام باب لا رتاج له. عيناه تلتقطان كل شاردة وواردة، لم يحدث يوماً أن غفل عن شيء، كان يدير شركات عدّة باقتدار، وأملاكاً يجهد في زيادتها، لكنه كان بائساً، أنا الذي أشبه خيال المآتة، خرجت إلى الدنيا ضعيف الجسم والعقل والإرادة لا أصلح لشيء. هو من زرع هذه الشجرة الملعونة وتعهدها بالسقي، حتى أثمرت الحنظل.

بعيداً.. بعد المشرق عن المغرب، أن يتراءى لي، ما كان ينكشف له، كما كان يزعم. كان يوقظني في جوف الليل، ويأخذ بيدي إلى المزرعة، شتاءً وصيفاً، تتّجه نظراته إلى السماء، يتناوب عليه البكاء والضحك، فيما أنا واقف بين النوم واليقظة...

طرقات على الباب، أيقظتني، تجاهلتها، خمّنت أنه سعيد، يتزلّف كعادته، لكنها عادت يصحبها صوت خادمي أنس:

- المعذرة.. هناك من يلحّ على لقائك؟

- لا رغبة لي بلقاء أحد.

- آسف.. لكنه هنا خلف الباب.

انفتح الباب بقوة...

- حاولت أن أمنعه، لكنه...

- اذهب.

خرج أنس، ووقف أمامي الحاج صالح، كان لايزال بلباس العمل، دعوته إلى الجلوس، فجلس فوق الرخام...

- اسمع... لقد استدعاني الشيخ.

تنبهت حواسي بشكل أشعرني بالألم...

- وما كان يريد؟

- حمّلني رسالة عاجلة لك.

- ما هي؟

- يقول إن فرصتك الأخيرة ستأتيك بعد يومين.

- فرصتي الأخيرة؟!

- نعم.. ويحذرك من ضياعها.

- ماذا يعني؟

- لا علم لي.. إنه يوصيك بانتهازها، والسير حتى نهاية الطريق.

- كنت بحضرته أمس...

- أنت لا تعرف الشيخ، إنه لا يتحدث من تلقاء نفسه.

أمضيت اليومين أفكّر في رسالة الشيخ، امتنعت عن الخمر والنساء، واكتفيت بالتدخين، كانت أفكاري أشبه بالسير وسط الضباب، كثيفة موغلة في القدم، مليئة بالأعشاب الضارّة، والروائح النتنة.

بكيت؛ عزّت علي نفسي، واقتفاؤها شيء لا أثر له، لماذا أنا بالذات أحمل وزره؟

قرّ عزمي على خوض التجربة كأمل أخير، لن أتوانى عن فعل أي شيء، لكن إن فشلت هذه الفرصة أيضاً، فليذهب كل شيء إلى الجحيم، علي بعدها أن أقتطع من جسمي ليأكل كلبي!...

استيقظت صباحاً على صوتها، كانت في أبهى حللها، جميلة مثل صورة زيتية، لا أخالني انبهرت بها يوماً كما أنا الآن، لكن شيئاً لامس قلبي، أدار رأسي عنها. لم يحدث يوماً أن أدرت برأسي عنها، تطلّعت إلى المرآة بطرف خفي، فوجدتها تطالعني مشدوهة، سارعت بترك المكان.

انفتح الباب ثانية، دون استئذان، كان الحاج صالح يقف عنده مرتدياً ثوباً ناصع البياض، بيده سبحة. انطلقت بنا سيارة أجرة... سأحظى برؤية الشيخ مجدداً، فأيّ قدر بانتظاري؟ لقد ألقيت بدلوي في البئر في المرات السابقة، ولم يعد لديّ ما ألقيه، اللهم إلا نفسي...

- انزل بني.

- ألن تذهب معي؟

- لن ترى الشيخ.

- ماذا إذن؟

- لا تخشى شيئاً، أستودعك الله.

بداية الطريق أم نهايته؟ غير أن ما يسلّيني أنني لم أقف ساكناً، بحثت طوال سنوات خمس،

عن معنى لم يزل يموج في قلبي. أنا لست خيال مآتة! ما أزال أبحث عن بئر أخرى، والسحابة إما أن تهطل فأرتاح، أو تمتنع، وعندها سأركن إلى الظل!.

كان الرجل شديد السمرة، واقفاً في ظلّ النخلة، يحمل طفلاً رضيعاً، يرفعه حيناً، وحيناً يداعب وجهه، ويشمّه. أشار إلي، وما إن كنت إلى جانبه، حتى ناولني الرضيع، أمسكت به، فكأنني فتحت جرحاً غائراً في قلبي؛ هاتان عينان تشبهان لؤلؤتين مخبّأتين في الجانب الأيسر من الصدر، تطرفان فأشعر وكأنّي في بحر لجّي، يلوح لي شطّ على البعد، لكن ذراعيّ لا تسعفاني.

أخرج من جيبه مفتاحاً ناولني إياه، وهو يستلم الرضيع. وأشار إلى بيت صغير دون سور...

– ستقيم هناك في تلك الدار.

بن الجاه والمال، يرفل في ثياب العز، ويغيّر سيّارته كل شهر، لم يشاهد سوى القصور والفلل الفخمة، والنساء المتبرّجات، قدّر له الدخول في تجربة جديدة وعالم مختلف، فيه بيوت من طين، ورجال يخرجون من البحر بأيديهم الأسماك، ونساء لا يبدو منهنّ سوى أعينهن، وأطفال حفاة يتسلّقون النخيل، يتطلعون إليه بفضول.

الدّوّامة

دق الجرس مؤذناً بانتهاء اليوم الدراسي، وتدافع الأطفال من على مقاعدهم زرافات إلى الخارج، حتى مدرّس الفصل سارع إلى الخروج دون أن يلتفت إليه وهو التلميذ الجالس على مقعده، وقد أمسك بملابسه في خوف.

كانت عيناه قد ادخرتا من الألم، ما زاد على حاجة طفل صغير، فهما تشبهان نجمين بعيدين في ليل دامس، وكساهما الأرق رداءً من الحيرة خليقاً برجل مبتلى بتأمين لقمة عيش لأبنائه العشرة، وليس بطفل لا يجاوز العاشرة!.

حرك رأسه يميناً وشمالاً، وعندما لم يشاهد أحداً في الفصل، أفرغ ما في مثانته من بول، فبلل ملابسه، وأخذ في البكاء، سيتأخر عن البيت كعادته كل يوم حتى يذهب والده إلى العمل، لكنه اليوم آثر أن يتأخر في الفصل الدراسي لحاجته للتبول، بعد أن رفض معلم الفصل أن يذهب إلى الحمام بحجة أنه كثير الذهاب إليه، لذلك سيظل هنا حتى الساعتين المقبلتين، ولن ينعم باللعب وسط النفايات.

كان يفكر في ذلك حين سمع وقع خطوات مقبلة، دق قلبه بعنف وانزوى في مقعده آملاً ألا يلحظه القادم، لكن الفرّاش وما إن تقدم حتى استرعى نظره الولد، وقد أخفى وجهه وجسمه يرتعش.

وجده يتقدم منه في هدوء وعيناه تلحظان الماء على ثيابه، ثم خاطبه قائلاً:

– لا تخشى شيئاً، تعال معي إلى الحمام ونظف ثيابك.

استجاب إلى الفرّاش، ومشى معه إلى دورة المياه، وعيناه تسترقان النظر إليه.

كان يؤمل ألا يرى الفرّاش بعد خروجه من دورة المياه، لكنه وجده بانتظاره وإلى جانبه الأخصائي الاجتماعي، اضطرب كثيراً وبدأ بالبكاء، لكن الأخصائي المتمرس بعمله ابتسم في وجهه مطمئناً، وسأله عن اسمه وفي أي فصل هو، ثم أخلى سبيله، فانطلق يركض.

ما إن وجد نفسه خارج المدرسة حتى تنفس الصعداء، توجه إلى يسار المدرسة ثم انثنى في طريق ضيق حتى وصل إلى شاطئ البحر، ألقى بحقيبته المدرسية ثم غرس أصابعه في النفايات وأخذ بتقليبها.

لم يكن هناك شيء يستحق البحث، لكن رغبته في العثور على شيء مميز كانت تشعره بالسعادة.

لم يمض وقت طويل حتى أقبل طفل آخر، يرتدي بيجامة، يمسك بيده تفاحة يقضمها بأناة، ابتسم في وجهه ثم أمسك بالتفاحة دون استئذان.. قال وهو يمضغ التفاحة:

- ألم تعثر على شيء بالأمس؟.

- وجدت دوامة.

- أرني إياها.

أخرج الطفل الدوامة وقد تكسر نصفها، لكن المسمار مازال قوياً، أمسك بها وراح يتأملها بسعادة، ثم اندفع والطفل في البحث وسط النفايات. وجدا أشياء كثيرة، مسطرة ومشطاً وأقلاماً ومجلات وطباشير وطوابع، غير أنها جميعاً قديمة متسخة، ثم استرعت انتباهه علبة ألوان نظيفة، فتحها وأخذ بالشخبطة بها على راحته وعيناه تشعان سروراً، وقرر أن يحملها معه، لكنه تذكر والده.

ثم رغبت نفسه وصديقه في مشاهدة ما في الصندوق من أشياء، أخرجاه من الحفرة الكبيرة، وأخذا يتأملان ما تجمع فيه، إذ كانا مشتاقين إلى ما يشعرهما بالأمان، وهذه الأشياء ملكهما لوحدهما لا يشاركهما فيها أحد.

ودع صديقه، ثم قطع الطريق الضيق ووجد نفسه عند الشارع العام، وأخذ بالركض، بعد أن اطمأن أن أباه لن يكون في البيت، فوجدها أمه من تعنى بأمره وإخوته، وهي الآن بانتظاره لتقدم له وجبة الغداء.

ابتسامة بريئة

دعوت خادمي لمقابلتي، حتى إذا وقف أمامي وهبته مائة دينار. اشتعل وجهه سروراً، حتى بانت نواجذه، وظهر معها سني الذهب.

لكن سعادته سرعان ما تبدلت إلى تساؤل.

قلت له:

- إنها خارج راتبك.

فاشتعل سروراً من جديد.

- لكنها ليست لك.

فبان الكدر عليه.

- إنها لعلاج ابنتك

اكتسى وجهه بالوجوم.

رفعت إصبعي مهدداً:

- إياك أن تنفقها على نفسك

كانت طفلته مريضة، أخبرتني أمها بذلك هذا الصباح، إنه لا يملك من المال ما يكفي لشراء الدواء لها، ولم تخبرني بالمزيد، لكني كنت أعرف أين ينفق ماله، والحال أني من بين جميع أثرياء هذا الحي معروف بكرمي، وأجرة هذا الخادم تعادل أجرة اثنين من خدم البيوت الأخرى.

أراد الكلام لكني أرغمته على الصمت، ولكي لا أدع له فرصة لتبذير المال قلت:

- سأطردك من العمل إن صرفت المال.

حدق في بعينين مشدوهتين، ثم تأمل المائة دينار، كنت أعرف ما يشعر به جيداً، كان يريد أن يلقي بها إلى الأرض، لكنه تذكر ما يدين به لي فقبض على المال، وانصرف وأنا أشيعه بنظرات ملؤها الاحتقار.

كان في الأربعين، غير أن من يراه يحسبه في السبعين.. جسم ضعيف وعقل أضعف، ونفس خبيثة وحياة ملؤها الرذيلة، تنفتح أبوابها على المسكرات طوال الليل، حتى إذا جاء إلى عمله صباحاً كانت عيناه تنطقان بما فعله مساء، تزوج متأخراً وأنجب ابنة وحيدة، ولولا هذه البنت لما فكر في العمل حتى.

جاءني يطلب عوناً لابنته، فخيرته بين العمل لدي بأجرة شهرية لا يحلم بها أمثاله، وبين

مساعدة سرعان ما تنتهي، فاختار الثانية.. أعطيته المال وأنا أعجب لحاله، لكن في المساء جاءتني امرأة في الثلاثين من عمرها، أخبرتني أنها زوجته ورجتني أن أقبل به خادماً، كانت رؤية رضيعتها أقوى من إرادتي، فقبلت به.

إن له وجهاً لا يريح، وعيناه تشبهان مصباحين على وشك الذبول، وفم لم يقرب الفرشاة يوماً، ومشية بطيئة كأنما بدنه موثق إلى الأرض بالحبال، ومع ذلك قبلت به، من أجل رضيعته.

في أوّل الأمر بدا خادماً نشيطاً، يكمل عمله ثم يسألني إن كنت بحاجة إلى عمل آخر قبل أن ينصرف، وكنت أكرمه ببعض المال، لكنها كانت ثلاثين يوماً لا أكثر، وانكشف عن إنسان لا أخلاق له.

كانت حديقة المنزل كبيرة، والجنايني يجهد في العناية بها، لكنه كان متقدماً في السن، وخمنت أن وجود هذا الخادم سيغير شيئاً في الأمر، لكن الأمور جرت خلاف ما تصورت، فبعد شهر واحد فقط، وكنت اتخذت مجلسي الأثير قرب مكتبتي، وأشعلت الغليون، سعيداً بالساعة التي أنصرف فيها للقراءة، طرق الجنايني الباب، وعندما دخل أخبرني أن هناك جماعة تسلقت السور، واتخذت لها مكاناً راحت تعاقر فيه الخمرة. لم يكن ذلك أمراً يدعو للقلق، لكن متزعم هذه الجماعة كان الخادم اللعين.

توجهت إلى هناك وأنا متوتر الأعصاب، فوجدته يمسك بزجاجة الخمر، وهو ينهق كالحمار، فيما بقية الضيوف الكرام، يرددون غناءه الجميل! بأصوات منكرة. حتى إذا وقفت أمامه، رمى بزجاجة الخمر، ووقف مضطرباً.

قررت أن أطرده، لكن زوجته كانت تعرف نقطة ضعفي جيداً، فكما جاءت في المرة السابقة، جاءت هذه المرة تحمل ابنتها الصغيرة، ومع الابتسامة البريئة للطفلة، وكلمات الرجاء، عفوت عنه، ووهبتها بعض المال من أجل الصغيرة.

كنت أعرف جيداً أني إن ضعفت وعفوت عن خادمي مرة، فلن يمكنني مرة ثانية أن أطرده، وهذا ما حدث فعلاً، لقد اكتفيت منه بعمله المهمل، وبسلوكه السيئ، وكل ما كنت أفكر فيه حماية لابنته من الفقر.

الساعة الثامنة

دعاه زملاء العمل لسهرة في المتنزّه المعروف، وكان الرجل أرملاً منذ أعوام ثلاثة.

كان قد تقدّم في السن، ومع ما ألقت الشدائد عليه من آثار، بدا أكبر من سنّه بكثير، خصوصاً مع كرشه المستدير البارز لكل من يراه، وذلك البياض البغيض في عينه اليمنى. لقد بدا لنفسه وهو يطالع شكله في المرآة وكأنه ابن ستين وليس رجلاً بالكاد يقترب من الأربعين!.

ابتسم ساخراً، ثم شبك ذراعيه حول صدره، وألقى بجسمه الضخم على الكرسي، وأسند خدّيه إلى كفيه الكبيرين الصلبين اللذين يحفظان تاريخاً طويلاً من المشقّة والجري وراء لقمة العيش؛ انتهى عند وزارة خدمية.

وراحت عيناه تتأملان في الغرفة النظيفة الواسعة، حتى حطّتا على الصورة الوحيدة المعلّقة. أخذ يتأملها وفمه لا يفتر عن ذكر الله تعالى، سائلاً إياه المغفرة والرحمة لها، وإن كان مؤمناً في قرارة نفسه أنها في الجنة؛ المرأة التي صبرت على ما أصابها، وتحمّلت عجزه وشدة العمليات؛ سيكون الله تعالى أرأف بها، وهو الذي وعد المتقين بالمغفرة والرحمة. لكنه وهو الوحيد في هذا العالم يحتاج إلى الرحمة أكثر منها، إذ ليس أحد من أصدقاء الأمس يسأل عنه، ليس سوى زملاء العمل.

تطلّع في جهاز الآيفون، فوجد أن الساعة لاتزال السادسة، بينما الموعد في الثامنة، والمتنزّه قريب من شقته، يمكن الذهاب إليه مشياً على القدمين. ضبط المنبه على السابعة والثلث، وقام متثاقلاً ونزع الجاكتة، ثم ألقى بجسمه على الفراش، وراحت عيناه تتأمّلان في السقف حتى غفا.

استيقظ.. لكن ليس على صوت المنبه، بل على صراخ زوجة جاره، لقد عادت من السفر وعاد معها الإزعاج، ويجب عليه مجدداً أن يتحمّل صوتها المنكر!.

تطلع في جهاز الآيفون، فوجد الساعة لا تتعدّى السابعة، قام من فراشه، وصنع لنفسه كوباً من الشاي الساخن، وجلس قرب الطاولة، وأخذ في قراءة الكتاب، حتى سمع صوت المنبّه. ارتدى الجاكتّة وتعطّر وفتح باب الشقة، حين وجد جاره أمامه.

سارع إلى إغلاق الباب، حامداً الله تعالى أن الجار كان مولياً إياه ظهره؛ كان أشبه بقطّ كلّما دفعته عنك، تزلّف إليك! سيصمّ أذنه بحديثه عن زوجته ومشاكلها، وسيقول له اصبر إن الله مع الصابرين، وسيبكي ويبثّ شكواه، حتى يخنقه بحديثه المعاد، وسيقول له إن الرجل القوي لا يبكي، وسيحاول الإفلات منه، وسيمسك بذراعه متوسّلاً إياه أن يستمع له، وسيضطر إلى نزع يده بقوّة

معتذراً له بأمر يشغله!.

وابتسم ساخراً، لكن من نفسه هذه المرّة، إنّ من يراه في هذه الحال، يحسبه مديناً بالمال، يحاول الفرار من مدينه، وليس من جار ثقيل الظل.

أخذ في انتظار ذهاب الجار، حتى إذا اطمئن فتح باب الشقة، ونزل من على السلم، إلى الشارع العام.

كانت السماء صافية والهواء عليل، وطقس مثل هذا طالما أطرب نفسه، فإن العزلة التي اختارها منذ وفاة زوجته منحته الكثير، لا شك أنها أخذت منه مباهج كثيرة، لكنها أيضاً جنّبته كثيراً من الآلام، وإذ كان مخلوقاً طيب القلب، شديد الحساسية انساق إلى العزلة عن قناعة.

تذكّر حينها السنة الصعبة التي مرضت فيها زوجته وفقد فيها عمله، لقد طرق أبوابهم واحداً واحداً، فلم يجد أحداً منهم يتقدّم لنجدته!. وشعر بمرارة في حلقة، حتّى أنه بصق على الأرض لشدّة تأثره، لكن مرأى طفلة صغيرة تقترب ويدها في يد أمّها، غيّر مزاجه، فبادلها الابتسام.

كان قد وصل إلى الخيمة المشار إليها، ومدّ يده ليفتح بابها، حين غزا وجهه العبوس كأشدّ ما يكون. ترك يده تسقط بلا مبالاة، وقفل راجعاً وهو يردّد: فما نفع خلاّن في السرّاء لا تجدهم في الضرّاء؟!..

رائحة البارود

«الجسر في غبش الفجر مرتقى الروح. إنه لا يزال يعني لي الكثير، موسيقى صاخبة؛ أحملها في جيبي وأخفيها عن عين المارّة».

- ألا تكفّ عن هرائك هذا؟

- ولماذا يا جميلة الوجه وسليطة اللسان؟

- لأنّك حالم لا تقف على أرض صلبة.

- لو أنك لمست بيديك جماجم الموتى؛ لما كان مكانك سوى السحاب.

- لقد شاهدت من الأهوال ما يروّع أمة بأكملها.

تطلعت ناحية اليمين.. رأيت الجنود وقد شدّوا بالحبال مثل قطيع من الغنم، وجوههم مسودّة وأجسامهم ضعيفة، حتى أيديهم لا طاقة لهم على رفعها.

لقد ترك الحارس الحبل وراح يدخن يقيناً منه بضعفهم!. أمّا أنا فكنت هنا على هذا الجسر، أنتظرهم بفارغ الصبر، مؤملاً رؤيتهم في حال أفضل. صدمت حتى شعرت بالغثيان. كانت سحناتهم أشبه بلون الضباب، بحركة عقرب تدوس على رأسه، بنهر مليء بالأوساخ، بسمكة متعفنة في جوف سمكة قرش. احتضنتهم واحداً واحداً، لكن أحداً منهم لم يتعرف علي، رغم أني ناديتهم بأسمائهم.

- ما بك شردت بعيداً؟

- لماذا تتعمّدين العودة بي لتلك الأيام؟

- كان مجرّد سؤال؟

- وماذا أفعل مع عقلك الذي لا يريد أن يفهم؟

- أووه.. لم يمض على لقائنا سوى شهر واحد ولسانك لا يكف عن سلقي؟

- هذا ما جنته يداك.

اذهبي.. لست الأولى ولن تكوني الأخيرة، نسيت أن تعيريني بالدائرة الكبيرة في وجهي وبالعين الحولاء، وبالكف المتصلبة.

كيف لك أن تعرفيني على حقيقتي، أنا الذي شهدت ما لم تشهديه؟! كيف يكون شعورك وأنت تحملين ذراع صديقك من على الأرض؟! كيف لعينيك أن تتحملا رؤية الدم متفجرا من عينيه؟! كيف لك أن تميزي الموسيقى المنبعثة من جرح غائر في البطن؟! كيف لك أن تتخيلي

نفسك محصورة بين عمودين! وكيف لك أن تتحملي الجلوس مع رجل ممتلئ بالمشاهد، حتى تكاد تخرج من فتحات وجهه.

تقرئين كتابك وأنت تسرّحين شعرك، تركضين على هذا الجسر وتمرحين، تدعين أنك ذو علاقة طويلة معه، منذ كنت في السابعة، وأنت الآن في السابعة والعشرين، لكنك لا تعلمين ماذا يشكّل لي هذا الجسر؟!. المومس العرجاء كانت تدرك ذلك؛ رأتنا نهرع إليه وفي أفواهنا بقايا إفطار الصباح، حتى إذا وقفنا بانتظار الباص، قالت ساخرة: لن تعودوا إلى بيتوكم!.

كان أسبوعاً لا غير، لكنه كان كافياً لحرقتنا. يحيى كان الوحيد الذي سمع كلامها، فترجّل من الباص، سخرنا منه ومن جبنه، تندرنا عليه، وجعلناه أضحوكة. لكنني عدت بكف واحدة وعين لا ترى، ونصف لسان، أما هو فظل في أبهى صورة، ازداد وسامة وجمالاً، وأنجب ابنتين كحبات اللؤلؤ، فيما بقيت أنا لا أحد معي ولا شيء.

الطاووس

عندما أجلس فوق الكرسي، أيّ كرسي! أشعر وكأنّي عنقاء تخشى الناس، كل الناس! أن تلقي عليهم حجراً ضخماً يقتلهم!. شعور لم يفارقني منذ طفولتي.

بالأمس ذهبت لرؤية أحدهم.. انتظرت في فناء الشركة على أمل أن يأتي، لكنه تأخر كثيراً. هممت بالاتصال به لنهره، حين ظهر رجل سمين الجسم في صورة مدهشة، سألته عنه فأخبرني أنه في إجازة.

غضبت وألقيت بنفسي على الكرسي، ورحت أتحوّل شيئاً فشيئاً إلى طاووس وأغيب عن الوجود، حتى أيقظتني أنثى، مجرّد أنثى! من سباتي.

سقت السيارة وأنا لا أكاد أتبيّن دربي، كأنّما في عنقي طائر مقيّد يحاول الإفلات من قبضة فمي!. لم يكن هناك موعد سوى الوهم حين يتملّكني وأنا على الكرسي!.

الشبح

(1)

عيناه كانتا تدمعان، تتطلعان إلى الشبح الواقف في ظلام الليل يفتح حافظة النقود، عادّاً ما فيها من دنانير.

ولد لا يتجاوز السابعة عشر، شعره غير مسرّح، ولباسه صيفي، ولا يغطي رأسه شيء رغم الشتاء القارص، رائحته تدل على أنه لم يستحم منذ أيام، وثباته يدل على أنه اعتاد السرقة.

إنه لا يكتفي بتفتيش ثوب أبيه، بل بفتح الخزانة الصغيرة. وسيحاول الآن فتح خزانة الملابس...

– آه...

ندّت عنه تحمل من الفزع والمفاجأة الشيء الكثير.. سارع إلى النافذة هارباً!.

(2)

عيناه كانتا تدمعان، تتطلعان إلى الشبح الواقف في ظلام الليل يفتح حافظة النقود، عادّاً ما فيها من دنانير.

ولد لا يتجاوز السابعة عشر، شعره غير مسرّح، ولباسه صيفي، ولا يغطي رأسه شيء رغم الشتاء القارص، رائحته تدل على أنه لم يستحم منذ أيام، وثباته يدل على أنه اعتاد السرقة.

إنه لا يكتفي بتفتيش ثوب أبيه، بل بفتح الخزانة الصغيرة. وسيحاول الآن فتح خزانة الملابس...

– آه...

ندّت عنه تحمل من الفزع والمفاجأة الشيء الكثير. حاول الفرار، لكن أباه أمسك به بقوة، وضغط على الزر فانتشر الضوء في الغرفة.

كان منكّس الرأس إلى الأرض، لم يلاحظ أباه وهو يمسح الدمع من عينيه، ويبدل هيئته من الحزن إلى الغضب...

– أهكذا تجازي أباك؟

– ....

– تسرقني؟!.

سرعان ما ارتخت أصابعه، فارتمى على الكرسي. بقي صامتاً، ممسكاً بذقنه لدقائق، فيما ولده لايزال منكّس الرأس.

رفع رأسه وتطلع إلى ولده بإشفاق:

– لماذا يا ولدي.. لماذا؟

لم يستطع الإجابة. كانت المفاجأة كبيرة. هو هارب من البيت منذ شهر. وقد اعتاد التسلل إلى غرفة أبيه وسرقة المال.

(3)

عيناه كانتا تدمعان. تتطلعان إلى الشبح الواقف في ظلام الليل يفتح حافظة النقود، عادّاً ما فيها من دنانير.

ولد لا يتجاوز السابعة عشر، شعره غير مسرّح، ولباسه صيفي، ولا يغطي رأسه شيء رغم الشتاء القارص، رائحته تدل على أنه لم يستحم منذ أيام، وثباته يدل على أنه اعتاد السرقة.

إنه لا يكتفي بتفتيش ثوب أبيه، بل بفتح الخزانة الصغيرة. وسيحاول الآن فتح خزانة الملابس...

– آه...

ندّت عنه تحمل من الفزع والمفاجأة الشيء الكثير. حاول الفرار، لكن أباه أمسك به بقوة، وضغط على الزر فانتشر الضوء في الغرفة.

كان منكّس الرأس إلى الأرض، لم يلاحظ أباه وهو يمسح الدمع من عينيه، ويبدل هيئته من الحزن إلى الغضب...

– أهكذا تجازي أباك؟

– ....

– تسرقني؟!.

سرعان ما ارتخت أصابعه، فارتمى على الكرسي. بقي صامتاً، ممسكاً بذقنه لدقائق، فيما ولده لايزال منكّس الرأس.

رفع رأسه وتطلع إلى ولده بإشفاق:

– لماذا يا ولدي.. لماذا؟

كان واضحاً أن لدى الولد كلام كثير، غير أنّه لم يستطع النطق. كانت المفاجأة كبيرة. هو هارب من البيت منذ شهر، وقد اعتاد التسلل إلى غرفة أبيه وسرقة المال، وإلا فكيف ينفق على نفسه؟!.

طرقات غاضبة على الباب، غيرت حال الأب. أشار إلى ولده بالاختباء في الخزانة. فتح الباب فوجد زوجته وقد تملّكها الغضب...

- ماذا تفعل؟

أجاب متلعثماً:

- كنت أبحث عن ورقة مهمة؟

- في هذا الوقت؟! تعال لتنام.

أغلقت الباب، ففتح الخزانة...

- اذهب الآن.. سأراك في الغد!.

الصمت

ست ساعات مرّت حتى الآن وهو على حاله هذه! ست ساعات والزوجة الوفية المخلصة نائمة في فراشها دون أن تُكلف نفسها أن تطل على هذا الزوج المريض، القابع في مكانه يتألم من أثر حصاة تسدّ مجرى البول، وتدفعه في كل لحظة ليقيء ما في بطنه!.

الصالة واسعة، والغرف كبيرة، وجميع من فيها نائمون أو يتصنعون النوم!، وحده هو من يطلب النوم فلا يستجيب له سوى دقائق سرعان ما تنقطع مع اشتداد الألم.

سبحانك يا رب! من أي شيء جُبلت هذه الزوجة؟! ومع ذلك لا لوم على أحد سواك، أنت من اختار هذه الحياة، واندفع فيها بلا تبصر، فانظر أي منزلة تسافلت إليها.

انفتح باب الصالة فأطلّت ابنته الجميلة يتبعها خطيبها، تحبه لا ريب في ذلك، لكنها ضعيفة أمام أمها، ولا تقوى على مخالفة أمرها، شأن جميع أخواتها وإخوانها، وهذه أيضاً لا حق لك فيها، فأنت ضعيف أيضاً ولا تقوى على مخالفة زوجتك!.

- كيف صحتك أبي؟

- كما ترين.

- لا يزال الألم شديداً؟

- وكيف يخف دون دواء؟!

كان يحاول إثارة الشفقة في قلب خطيب ابنته، لكنه كان متيقناً أنه لن يُقله للمستشفى، فلا أحد في هذا البيت يحترمه أو يُعنى بأمره.

دلف الزوجان الجديدان إلى الداخل، بينما أخذت عيناه تتأملان في الصالة الكبيرة، في الصمت الذي يشمل كل شيء، في الوسائد المبعثرة في كل مكان، في بقايا الأكل المتناثرة هنا وهناك، في بقع الزيت وفي الفئران التي تتحرك بحرية دون أن يُعنى أحد بصدها! في النمل يتعاون على حمل كسيرات الخبز.

ألا ما أتعسها من حال! أرغفة الخبز اشتراها بنفسه منذ ساعات كما هو شأنه كل ليلة، زيادة في الحرص على ألا يجوع أحد في بيته، ليس هذا فحسب، بل إنه يجهد في إصلاح كل شيء بنفسه، ليس عن بخل، بل لأنه متوسط الحال ويخشى أن يُقصر في حق زوجته وعياله. إنه حتى لم يشتر ثياباً جديدة منذ سنوات خمس، ولم يسافر منذ أعوام عشرة.

وابتسم لذكرى السفر، وانداحت أمام عينيه صور شتّى لأيام العزوبية. كان الجيب مليئاً بالمال، والقلب خلي من الهموم، والرفقة جديرة بالحياة، وكل شيء مُعد سلفاً كي يعيش وينهل

من معين السعادة ما يشاء، وشباب القرية الرائعون يتزلفون منه، وزملاء العمل يُحبون أحاديثه الساخرة وحكاياته الظريفة، والنخلة تتحرك سعفاتها بهدوء، والمساند في مكانها، والشاي الساخن، ومنفضة السجائر مليئة عن آخرها بسجائر الأمس، والقلب في نشوة يترقب الإجازة السنوية والسفر إلى بيروت، وتطلع ناحية صديقه يوسف:

– هل لا يزال المسمار في جيبك؟!

وضحك يوسف، حتى شرق بدخان السيجار، وقال وعيناه مليئتان بالدمع:

– غربل الله شيطانك، أمازلت تتذكر المسمار؟!

– إنها ذكرى طيبة أليس كذلك؟!

وانفجر يوسف في الضحك مجدداً..

– اسكت، لم أعد بقادر على الضحك.

وصحا من ذكرياته على صوت صياح، كانت زوجته...

– هل أصبت بالصمم؟!

رمقها للحظة، ثم أدار برأسه عنها، وسرعان ما أحس بالغثيان فأفرغ ما في جوفه في دلو الماء.

آمال صغار

لأنّي يتيم.. ولأنّ جدّي وجدّتي مشغولان عنّي بلقمة العيش، ولأنّي مطرود من المدرسة؛ محكوم علي بالفشل؛ وجدت متّسعاً من الوقت؛ كي أعيش كما أهوى؛ أخرج وأعود وقت ما أشاء. لا أحد يسألني أين كنت؛ ولا ماذا فعلت!.

عمري ستّة عشر ربيعاً، وقوّة جسمي لا تناسب سنّي؛ فهي أكبر بكثير، لكن آمالي لا تتعدّى أرضاً واسعة؛ أصطاد فيها الطيور، ثم أبيعها بسعر يمكّنني من إشباع بطني، وشراء السجائر، وطعماً لسنّارة ألقي بها للنهر؛ فتصيد من السمك ما يوقف صراخ جدّي!.

عندما يأتي المساء، ويأوي جميع من في البيت إلى مراقدهم؛ كنت أخرج من تحت السّلّم؛ حاملاً «الفخّاخ» والسنّارة، وكتاباً صغيراً أضعه في جيب قميصي -كتاباً خصّني به الحاج عمار رحمه الله قبل أن يغرق في البحر، فيصبح ملكي- متجهاً إلى الأرض خلف الجدول الصغير.

كانت فيما سبق مزرعة كبيرة، قبل أن تتعرّى من نخيلها، وتصبح أرضاً جرداء. أجلس هناك، مستلقياً على الأرض؛ أقرأ كتابي، منتظراً الطيور. لقد حفظت موعد مجيئها، كما اعتدت الضوء الضئيل للقمر، والهدوء الجميل الذي يشمل المكان، وأزيز الطائرات وهي تتأهب للإقلاع في المطار القريب، ونباح الكلاب، و«صوت» البومة، و«صوت» الجنادب.

أرمي بناظري بعيداً، فتواجهني ظلمة مهيبة، وسكون رائع، وأشكال نخيل، تتعانق سعفاتها في مودّة؛ توقظ بي أطيافاً من طفولتي؛ صورة أبي وهو مسجى على فراش الموت، جدتي تسير بي في الشارع دامعة العينين، عين جدي الحمراء، أرجوحة خالي؛ عالم «رائع» يخرجني منه صوت الطير وقد علقت في الفخ. أسارع إليها، وأضمها إلى بقية الصيد.

كنت أصطاد كثيراً من الطيور، وأبو محمود الحارس الليلي بإحدى المدارس، يتكفّل بشرائها بثمن معقول. رجل صالح يخاف الله تعالى، كان يستقبلني بكوب الشاي الساخن، وببسمة تحمل كثيراً من الإكبار والاحترام. كان يعبّر عن إعجابه بي واعتمادي على نفسي رغم صغر سني، وكان كثيراً ما يترحّم على أبي، ويثني على تواضعه ودماثة خلقه.

كنت أقضي الساعات معه قبل أذان الفجر، مستمتعاً بأحاديثه وذكرياته عن القرية وناسها، وكان لا يبخل بشيء علي، حتى إذا أشرقت الشمس بنور ربها؛ ودّعته وتوجّهت إلى مكاني الأثير عند شاطئ البحر، فوق المرتفع الصغير.

هناك كنت أجلس ملقياً بالسنارة، منتظراً السمك. ولا يلبث نجيب وموسى أن يقبلا مسلّمين..

يتيمين مثلي وفقيرين، اضطرا لترك المدرسة بحثاً عن المال. يبيعان من السمك، ما يصطادانه، محتفظين بشيء لغدائهما. أما أنا فلم أكن أبيع السمك لأحد، بل كنت أعود به للبيت، قبل أن يستيقظ جدي، وأضعه في الثلاجة، ثم أذهب متعباً لأستلقي على فراشي تحت السلم.

منفضة السجائر

كم هي حبيبة هذه الأشياء إلى قلبه، وكم هو مؤلم أن يفارقها بعد سنوات طويلة قضاها في صحبتها، وأن يتغيّر معها الطقس والطعم والأشخاص أيضاً. عبثاً سيبحث عن مجلس آخر يقضي فيه ما تبقى من شيخوخته؛ فلا أحد من أصدقاء الأمس على قيد الحياة سواه، ولا أيّ من جيل أبنائه يشرّع أبواب بيته!.

كان هذا المخزن عجيب غريب، ليس هناك شيء لن تجده فيه، كان مصدر سعادة للخلّان والأقارب، وكان الرئة التي تتنفّس القرية من خلالها. لقد شهد جيله وجيل أبوه، أمّا الأبناء! وأحسّ بغصّة في حلقة، ورغبة عارمة في البكاء، لكنه خجل من الشباب المتجمّعين حول سلّة الرطب، وإذ حاول أن يقف بسرعة غافلاً عن ظهره المقوّس، أحسّ بألم اضطرّه للتأوّه.

سارع الشباب إليه، وساعدوه حتى استلقى على ظهره، وفيما عيناه تتأملان في سقف المخزن، بدأت دقّات قلبه بالهدوء، حتى غفت عيناه. لكنه عندما فتحهما لم يجد سوى ابنيه موسى وصابر، وبدلاً من أن يقابل اهتمامهما؛ أعرض بوجهه عنهما.

قال موسى في نفاذ صبر:

- أخبرتك أن أباك لا يرغب في رؤيتنا.

- انتظر ريثما نطمئن عليه.

وجاء صوته غاضباً:

- هذا كلّ ما قدرت عليه؟!

- وماذا نفعل وفمك لا يكف عن سلقنا؟

- أما تستحي تخاطبني بهذه الطريقة؟

وبدرت من ابنه حركت وشت بضيقه، ثم غادر المكان.

أمّا صابر فكان ينظر إلى الأرض، وبعد برهة رفع ناظريه لأبيه...

- هلاّ خففت على نفسك أبي.

- وماذا يهمّك من أمري؟

- لماذا كل ذلك؟

- لماذا كل ذلك؟ ألا تشعرون بالخجل؟

- أرجوك خذ الموضوع بهدوء أبي

- هذا المكان عمري يا ولدي؟

– لكنك تقدّمت في السن ومن حقّك أن تستريح!
– وهل طلبت أكثر من ذلك؟
واعتصم ولده بالصمت طويلاً، ثم غادر المكان دون أن يلقي نظرة على أبيه.
وإذ أحسّ أنه لوحده دون أبناء أو أصدقاء ولا حتى زوجة، بكى، محاولاً ما وسعته الحيلة أن تقفز الدموع إلى عينيه، لكنها تأبّت عليه.
تحامل على نفسه فأسند ظهره إلى الجدار، وراحت عيناه تتأمّلان في كلّ شبر في المكان، حتى حطّتا على منفضة السجائر. ترى كم عدد السجائر التي احتوتها، وكم عدد الخلاّن الذين اجتمعوا حولها؟! كانت السبب في طرده من الشركة الضخمة، حين اتهمه مسؤوله الأمريكي بسرقتها. وحيث تقرّر طرده، سارع وأخفاها عن الأعين. وبعد سبعة أعوام، ذهب لرؤية مسؤوله، وألقاها عليه، معتزّاً بالمخزن الكبير الذي أنشأه بكده وتعبه، فكفاه العمل مع أمثاله من المسؤولين.
وانتابته نوبة فرح مدهشة، وهزّ رأسه طرباً وقال:
– ما رأيك بالمخزن يا حاج محمد؟
ثم حرّك يده بعصبية...
– بل سيكون أعجوبة في القرية.
ثم دخل شاب، وألقى السلام، لكن الحاج لم يرد عليه...
– لقد بنيته بجهدي وعرقي.
– أريد حبلاً متيناً يا حاج صالح.
– عندما أتقدّم في السن سيعنى به أبنائي.
وتقدّم الشاب حتى وضع يده على كتفه...
– حاج صالح أتشكو من شيء؟
– نعم.. سيحرص عليه أبنائي
– حاج صالح أتسمعني؟
– أرجوك لا تقس أولادك بأولادي، إنهم مهذّبون.
– لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.
– أؤكد لك أنهم لن يبيعوا هذا المخزن لأحد.
ثم أسرع الشاب، وجاء بعد خمس دقائق بصحبة أبناء الحاج صالح، تقدموا من أبيهم، لكنه لم يعرفهم، رفعوه عن الأرض ومضوا به وفمه يقول:
– لقد أخبرتك أن أبنائي لن يفرّطوا في ثمرة عمري، فلا تعد لمثل هذا الحديث.

من الطابق الأوّل

سلمان وجهه مضيء مشرق، يبسم عن ثغر نضيد، عيناه تتألقان فرحاً بالمال والزوجة الشابة، الجميع يثني على أخلاقة العالية، «المال لم يغيره» «لايزال طيب القلب كما عرفته محباً للناس»، «بالأمس رأيته يدفع بسخاء لامرأة قصدته في حاجة»، «ما أطيب قلب سلمان! إن المال لم يغيره».
سلمان يكبره بخمسة أعوام، وعبثاً يحاول أن يقنع الناس أنه أصغر منه «لا تقل ذلك إنك تكبره بخمسة أعوام على الأقل»!، سلمان لا كرش له، وهو ذو كرش ضخم، طويل قسيم، ممتلئ البطن، نظره عالٍ، ويلبس النظارة منذ خمسين عاماً.
إذا ابتسم سلمان ظهرت أسنانه اللؤلؤ، أما هو ففقد 6 أضراس حتى الآن، يرتدي لباسه بعناية وهو يلبسها دون كي! يمشي فكأنه رمح سمهري، ويمشي هو كأنه سلحفاة تدب على أربع!. فأي فرق بينه وبين أخيه؟!.
سلمان رجل طيب وأنت تدرك ذلك، مثابر صنع نفسه بكده وتعبه، أين كنت عندما كان يستيقظ فجراً، يصلي الصلاة ثم ينطلق وراء لقمة العيش؟! كنت هناك فوق سطح البيت، الشلة الموقرة! وأفلام المقاولات المضحكة، والشيشة والدخان و«البتة» و«الكيرم»، وأغاني عبدالحليم حافظ وأسمهان، وابتسامة وجه القمر سعاد حسني! والحكايات أيضاً، الحكايات الكاذبة التي كنت تنسجها حول أهل القرية، كانت تجذب لك الأصدقاء! بمعدّل صديق كل يوم، لكنهم تركوك جميعاً! لم يتبقَ أحد ولا حتى أبوصالح، ذلك الذي كان يبيت في غرفتك! وتبيت في غرفته، يأكل من زاد أخيك، وتأكل من زاد أبيه، أخذته زوجته بعيداً، وإذا التقيت به اليوم قابلك بابتسامة خواء، لكنه يقابل أخاك بمودة وإكبار.
سلمان كان يدرك أنه لا أمل فيك، طالما عنفك وحذّرك، لكنك ركبت شيطان غرورك، دعاك كي تكون معه في معرضه المتواضع، لكن رائحة السيجار وهي منتشرة في الغرفة العليا كانت أقوى من ضميرك، سخرت منه ومن طموحه، «إنك لن تنجح في مسعاك»؛ هكذا بكل بساطة تركته لحلمه الجميل! «لا أمل في هذه البلاد الميتة» تعهد أن يعطيك المال كي تجرب حظك في دولة أخرى، لكنك انصرفت ساخطاً، حتى إذا أصبح تاجراً معروفاً تقدمت إليه راغباً في العمل! وما العمل الذي يناسبك؟ لا شباب ولا ثقافة ولا شهادة! مجرد شكل هندسي لا يعرف قابله من دابره، لا لغة تسعفك، ولا ذاكرة تقيك الخطأ، ومع ذلك جربك في أكثر من وظيفة، وعندما أحسست أنك بعت ماء وجهك إلى الدرجة التي أصبحت فيها بلا ماء؛ اخترت أن تكون بائعاً في معرضه الكبير.

وها أنت تطل على أخيك من الطابق الأول فتشعر بغصة في حلقك! وها أنت تتأمل في حاله وحالك! أولاده ينتشرون في المعرض، وآخرون في المعارض الأخرى، وسلمان بينهم بملامحه السمراء، لم تفارقه الوسامة، وها هو يمسك بالجالكسي ويبتسم بسعادة، إنها زوجته لاشك! وها هم الناس منتشرون في المعرض، يطلبون الجيد رخيص الثمن، وها أنت ترغب أحدهم في الشراء ووجهك ملؤه الحياء، تخشى أن يلاحظ الشبه بينك وبين سلمان فيسألك عن حالك وحاله، عن الوجه البشوش ملؤه الحياة، والوجه المتغضن يكسوه التعب، عن العطر الذي يستقبل به الزبائن، وعن رائحتك النفاذة التي تزعج الجميع! عن سلمان الذي يقف كأنه رمح سمهري ويبسم عن ثغر نضيد، وعنك أنت الذي يجبرك الوهن على الجلوس، ويتحاشاك الناس رغم ابتسامتك المتكلفة، وأسنانك التي نخرها السوس فأحالها إلى حدوة حصان!.

ذو النّابين

لاشك أنّ وحيدته كانت الصخرة التي تتحطم عليها إرادته! وإلا لما صمد يوماً واحداً على زوجته؛ بعد اكتشافه طباعها السيئة التي أثمرت حنظلاً.

كان يقترب من الخمسين، ميال للسمنة، يبرز بطنه بشكل واضح، لكنه كان سريع الحركة، محب للنشاط وللضحك، دمث الأخلاق، واسع الصدر، أما هي فكانت تقترب من الأربعين، نحيلة الجسم، تتحرّك بعصبية، وتثور لأتفه الأسباب، ولا تحبّ الاختلاط بالناس، وتضيق بأقلّ مزحة حتى لو صغرت، ولم تكن تجد أمامها سواه تلفحه بسمومها!.

أخذ بالتطلع في الجدار أمامه، كان راغباً في الذهاب معنا إلى البحر، لكنه كان يعلم كما نعرف جميعاً أنه لا خيار ثالثاً أمامه، فإما أن يغامر ويذهب، ليعود وقد أعدّت زوجته من الهم والغيب و«الحنة» ما لا طاقة لحمار بحمله، أو يتراجع وينكمش على نفسه كما هو متوقع.

لكنه تلفن لي ليلاً، قبل ساعة واحدة من ذهابي، كنت أنتظر الأسياخ والمشاوي، حين رن الآيفون.

كان يتكلم بعصبية، لقد قرّر الذهاب وليكن ما يكون! لم أحدثه بشأن زوجته ولم أثنه عما نوى، إنها ليلة لن تغير من الأمر شيئاً، فطالما أن زوجته «لا يعجبها العجب ولا الصيام في رجب» فأولى به أن يعيش لا أن يختبأ في بيته كالفأر خوفا منها!. بل إنني أسرعت بكل طاقتي، فوصلت إليه في غضون عشر دقائق لا غير.

وجدته ممسكاً بعصا غليظة، ينهال بها ضرباً على زوجته، كان قد نبت له نابان غريبان واتسعت عيناه كثيراً، حتى جسمه أصبح أكثر طولاً وأكثر صحة، بل إن الحدبة في ظهره كانت قد اختفت، أما زوجته، فأمست سوداء البشرة بعد بياض، ونبتت لها إصبع سادسة في راحتيها.

اندفعت بكل قوتي لكي أمنعه من الضرب، لكنني لم أستطع أن أزيحه قيد أنملة، تصلب مثل جذع نخلة، وراح يضرب الزوجة وهي تحاول الفرار ولات حين مناص.

تقدم ناحية السيارة بخطوات متردّدة وولجها وقد بدأ القلق جلياً عليه...

- إنها ليست بالبيت

- عال... لقد خدمتك الظروف إذاً

- لكن عندما تأتي...

- أنت مطلوب في كلا الحالتين يا صديقي...

أخرج علبة السجائر، وراح يدخن في شرود، ورجحت أسترق النظر إليه، وقلبي يتمزّق ألماً من

أجله. إن الإنسان يمتلك طاقة عجيبة على الصبر، وإلا لما احتمل هذه المرأة الغول!.

مضيت بالسيارة، وكان يمسك بالآيفون متوجساً من أي اتصال غريب، وما أن اقتربنا من الشاطئ حتى رنّ الآيفون، اضطرب حتى أن السيجارة سقطت من يده، فسارع إلى التقاطها. لقد بدا أشبه بمن تناول دواءً شديد المرارة!.

– ألو

– اللعنة عليك من امرأة

– اسمعي الكلام وابقي في البيت

– إن خرجتِ فلا رجعة أبداً

– سأهشم رأسك، انتظريني فقط.

ثم سقط الآيفون من يده، وانخرط في البكاء، ثم تطلع ناحيتي، وعيناه تطلبان مني العودة به، لكن عناداً قوياً تملكني، فلم ألتفت إليه، أسرعت بالسيارة إلى مكان الصحبة، ودون أن أعنى بتوسلاته، أخرجت عدّة الشواء، وتوجهت إلى الأصحاب.

تركته آملاً أن يتبعني، وعندما حاديت مكان الصحبة، تطلعت إلى الخلف فلم أجده، هززت رأسي أسفاً، لكنني ما أن اقتربت من الصحبة، حتى وجدته بينهم، صوته يرتفع بالضحك، سعيداً مهيمناً على الجميع.

عينان شهلاوان

أغلقت هاتفها في وجهه، فوضع جهاز الجالكسي على الطاولة. كان يشعر بتأنيب الضمير، لكنه كان يعلم أيضاً أنها لحظات سرعان ما تبدّدها أجواء العمل والسكرتيرة الذكية!. رغم أن خطيبته قبل ساعة من الآن ظهرت في صورة غير التي كانت عليها.

كان معها في سيارته، أدار بعينيه إليها؛ ما أجمل هذا الوجه وهاتين العينين الشهلاوين والشفتين الرقيقتين. جمال طالما بحث عنه، حتى وجده...

– سأضطر لإلى السفر

– هل أنت جاد؟

– طبعاً!

– لم يمضِ على مقدمكِ سوى يومين؟

– إنها طبيعة عملي

– أكاد لا أراك

– وماذا أفعل؟ أحتاج لتسويق البرنامج

– أيمكنني أن أطرح عليك سؤالاً؟

ضحك متفاجئاً...

– تفضلي يا صاحبة السعادة؟

– لماذا تزوجتني؟

– لماذا تزوجتكِ؟

– بلى.. لماذا تزوجتني؟

– لأنك فتاة طيبة وجميلة ومتعلمة

– وساذجة أيضاً!

– ماذا تعنين؟

– لا تتغابى.. أنت تفهم ما أقصد

– لا.. لست أفهم

– أتحسبني عمياء

– وضحي كلامك أكثر

– ليس هناك ما يخفى.

أوقف سيارته بشكل مباغت جعلها تهتزّ فوق الكرسي. أراد أن ينطق، لكنه اعتصم بالصمت. حمد الله تعالى أنه أمسك بلسانه، وإلا فإنّ نطق كلمة واحدة يضعه في موقف لا يحسد عليه. إن الخطيبة تعرف كل شيء عنه، ولا فائدة من معرفة الطريقة، بل الأهمّ معالجة النتيجة.

ظلّ صامتاً طوال الطريق، وكذلك هي، حتى إذا أوقفها أمام بيت أبيها؛ خرجت من السيارة بهدوء. ساق السيارة وعقله مشغول بما حدث. ولم يجد مكاناً يريح فيه قلبه المتعب؛ سوى مكاتب المؤسسة، استقبلته السكرتيرة الآسيوية، الموظفة والخليلة عند الحاجة.

إنها تسكن في الشقة المقابلة للشقة التي يقيم فيها مؤسسته، يدفع عنها الإيجار، كما يدفع إيجار الشقة العليا التي يسكنها بقية الموظفين.

إن الجميع في مؤسسته يدينون له بالطاعة، بدءاً من السكرتيرة وانتهاءً بأصغر عامل. إنه شاطر، إلى الحد الذي جعلهم جميعاً لا يستطيعون الانفصال عنه، فهو لا يكتفي بدفع رواتبهم، وإيجار سكنهم، بل حتى طعامهم يشتريه من حرّ ماله، وكذلك لباسهم، تشتريه السكرتيرة بماله هو، لذلك أصبح تواجده في المكتب ليل نهار أمراً عادياً، وكذلك مبيته في شقة السكرتيرة!.

حتى ولد السكرتيرة ذو الثمانية أعوام، لم يغفل عنه، فالمكتب مفتوح له، ليلعب متى شاء على أجهزة الكمبيوتر. لذلك كان النجاح حليفه في المؤسسة التي جهد ليل نهار، حتى ازدهرت. فأيّ فرق بين مؤسسة يملك مفاتيحها؛ يديرها بإتقان، فتثمر مالاً، وبين خطيبة غرّة صغيرة السن والعقل؛ لا تستوعب طموحه؛ ولا تغفر له أخطاءه حتى الصغيرة منها!.

لقد اقترن بها قبل عام، ورغم الاستياء الواضح على وجه أبيها وأمها، لم يجد عيباً في تأخير حفل الزفاف حتى يتهيأ له ترتيب أوضاعه أكثر. لكنه يعلم جيداً أن السبب لا علاقة له بالمال أو ترتيب الأشياء، بل بنفسه التي لا تستقر على حال، نفسه التي تحبّ امتلاك كل شيء بأبسط الأثمان. تاجر شاطر؛ يعرف كيف يأخذ الكثير مقابل القليل، والفتاة جميلة ومتعلمة وذات خلق ودين، وغدا سيتوسط لها للعمل بوظيفة، تدر عليها دخلاً محترماً، يجنبه الإنفاق عليها!.

طرد

أستميحك العذر.. لم يكن من المناسب أن أطرق بابك، غير أن ما وقع لي أيضاً لم يكن مناسباً. دعني أشرح لك الأمر قبل أن تقطب جبينك، امنحني ولو دقائق خمساً من وقتك كي أعطيك فكرة عما حدث.

أنا أعلم كم أنك غاضب مما وقع اليوم. صدقني لم أكن أنا من تحدث مع ابنتك. كان مجرد طرد، سألني أحدهم أن أوصله إلى باب شقتكم، وقمت بواجبي ولم أكن أعلم بما بينك وبين الشاب.

لماذا أنت غاضب هكذا؟! يخيل إليّ إنك تبحث عن أي شخص ترميه باتهاماتك، دون أن تعنى بمعرفة الحقيقة. هل أسأت إليك يوماً؟ بله عرفتك قبل هذا اليوم؟ ما بالك تعاملني وكأنني ارتكبت بحقك ذنباً لا يغتفر؟!.

لا يحق لك أن تصفني بهذه النعوت وأنا الذي احترمت شيبتك، وأوقعت نفسي في مشكلة كبيرة من أجلك. أجل أنت تعرف أني غريب عن هذه القرية ولا يوجد لي نصير فيها، ومع ذلك لم تدخر كلمة سوء تقال عني إلا وأطلقتها حمماً جعلت كل من يلقاني ينظر إليّ نظرات تشي بالكره، حتى أن بعض الشبان تهجم عليّ وطالبني بالخروج من القرية.

اتقي الله يا رجل... لو كنت شاباً لعرفت كيف أرد عليك، أما وأنا مكبل باحترام شيبتك، فلا يسعني سوى أن أملك أعصابي. أنظر ماذا فعلت! أيعجبك ما يحدث؟ أيسرك أن يدفع بي الناس إلى خارج العمارة؟ أين ضميرك؟ لماذا لا تخبر الناس الحقيقة؟.

صورة حيّة

الشاب الشجاع الوسيم جميل المحيّا من أهل بادية الشام، أيقظ في نفسها الإحساس بسحر الشرق، شاهدته يتحوّل إلى مارد، يخوض بين الجموع، لا يرهب رجال القبيلة الأشدّاء ولا بنادقهم المصوّبة نحوه، لا يتركهم حتى يتراجعوا معلنين فشلهم في اختطافها هي الليدي الإنجليزية الثرية، ذات الحسن والجمال والقدّ والاعتدال، المرأة التي لا تقاربها أخرى سحراً ونعومة.. إنها الليدي جين ديغبي.

كانت الليدي جين قطعت مسافة طويلة من بريطانيا حتى وصلت الطريق البادية بين حمص ودمشق، يسير في ركابها شيخ بدوي شاب اسمه «مجول المصرب» وجماعة من قبيلته، يحمونها من قطاع الطرق، وفيما كان الموكب يسير، كانت الليدي تتأمل في الطلة البهية للشاب، في الفضاء الممتد أمامها دون حواجز، حيث الأشياء على طبيعتها، وحيث الناس في عفويتهم.

كانت تشعر لأول مرّة بالدم يتدفق في كل شيء، والحياة تدبّ في كل شيء.. ابتسمت ساخرة من نفسها وممن عرفتهم من بني قومها، هناك لا تجد سوى البرودة تغشى كلّ شيء، حتى الغضب يتوارى خلف حجاب النفاق، إنه البرود نفسه الذي جعلها لا تحترم أزواجها الأربعة! اشترطت عليهم واحداً واحداً ألا يتدخلوا في حياتها العاطفية.. ولم يعترضوا!.

ترى أيّ حياة مع زوج لا يغار؟! كانت كثيراً ما تتساءل، هل هم من ذوات الأرواح حقاً؟! لكنّ هذا الشاب رجل حقيقي.. ليتها تعرفت عليه من قبل لعاشت معه امرأة شريفة طاهرة الذيل قبل أن تتلوث بالخيانة.

– كان يمكن أن تقتل؟

أجاب وعلى فمه ابتسامة واثقة:

– لقد كان واجبي

– ألم ترهب بنادقهم؟

– إن الفشل في حماية المرأة عار عندنا

– أتعني أن جميع شباب هذه البادية على شاكلتك؟!.

– وأفضل مني.

ما أبهج أن تسعد عينك برؤية أرض غير أرضك وأناس يختلفون عن بني جلدتك.. حيث الشمس تسطع فتغمر كل شبر من هذه الأرض الجرداء.

وصلت القافلة إلى مكان التخييم، رفض كل أفرادها أن تمدّ يدها بالمساعدة، تعاون الرجال ولم تمضِ سوى ساعة حتى وجدت نفسها في خيمتها معززة مكرّمة.

حياة هؤلاء البدو مدهشة حقاً، كانت في بلادها تسمع حكايات مروّعة عن قسوتهم وشدّة بطشهم، واعتدائهم على غير المسلمين، لكنها لم تجد منهم سوى الأنس والمحبة، حتى النساء عندما أقبلن إليها، توقعت أن تنفر منهن، لكنهن استقبلنها بالأحضان، وبالكلمات اللطاف.

لقد أثرن دهشتها؛ فكل واحدة من هؤلاء الصبايا أحلى من جميلات أوروبا بأسرها، ومع ذلك لم يبرحن يثنين على جمالها ويصفنها ب«أم اللبن»، ويرفضن أن تمد يديها لشيء، حسبت في البداية أنهن لا يقبلن من غريب أن يشاركهن طهو الطعام، لكنها اكتشفت مبلغ لطفهن حين يعاملن معاملة الأميرات.

خرجت من خيمتها وأخذت بالتأمل في الصورة الحية أمامها، ثمة أرض خلاء وخيام متقاربات، وقطيع من الأغنام يبدو في البعيد، ورجال يقفون قرب شيخ القبيلة، وامرأة قرب النار، وأدارت بطرفها إلى اليمين فوجدته هناك الشيخ الشاب المتفجر قوة ورجولة يبتسم إليها بمودّة.

– هل أعجبتك البادية؟

– إنها مدهشة، لم أشاهد أجمل من هذا المنظر

– ألك رغبة أخرى؟

– أبداً... أنتم أكرم من عرفت

– آمل أن تقضي وقتاً ممتعاً معنا

– لاشك.. أشعر وكأني سأعيش أجمل أيامي في هذه البادية.

أخذ الشاب بيدها، وتنقل وإياها بين مضارب الحي، إن حباً عظيماً يتولد في قلبها لهذا المكان، فهي تشعر وكأنها قطعة أخذت منه لتعود إليه، ولن تفارقه بعد اليوم أبداً.

حمامة فوق سطح البيت

الحمامة فوق سـطح البيت لاتزال في قفصها، تأكل وتشرب. تعتني بها الأم كما تعتني بابنها. تطلقها لتطير بعيداً وتعود إلى قفصـها. كان ولدها قد عوّدها على ذلك، فهي لا تعرف مكاناً آخر غير هذا القفص.

كان يخيـل للأم أن هديـل الحمامة يبكي من أحبها ومنحها كل هذا الحنان، كما هو شـأنها، لكن إذا كانت الحمامة تغيب ثم تعود، فإن ولدها قضى أكثر من شهر ولم يعد حتى الآن.

لو كانت تعرف أي شـيء عنه، لكان يمكن التصبر! لكن لا خبر عنه حتى الآن. هل هو حي أم ميت؟ معافى أم مريض؟ يأكل ويشرب أم يعاني قسوة الحاجة، كما عانى قسوة الأب.

لم تعـد تطيـق صـبراً. فالزوج القاسـي يكتفي بالجلوس في «حوش» البيت يدخن السـيجار، ويتناول كؤوس الشـاي، وهو سـاكت كأنما ألقم حجراً. لا يسـتطيع التنصـل من مسـؤوليته، لكنه أيضاً لا يستطيع الاعتراف بخطئه. وبين هذا وذاك، متبرم عابس، كثير السعال، شديد العصبية.

وإذا كانـت قـد اعتادت جبروت الـزوج من قبل، فإن هرب الولد من البيت شـلّ آخر ما لديها من قوة. فلم تعد قادرة على الإمسـاك بقلبها. جلسـت إلى الأرض في إعياء، وانخرطت في البكاء، وسط طقس حار شديد الرطوبة، أخذ بالاقتراب من قدميها اللتين تمكن الروماتيزم منهما. لكن داء القلب كان أكبر من أن تفكر في قدميها.

الزوج الذي اعتاد على أن تكون زوجته بقربه، افتقد زوجته هذه العصرية. ارتفع صوته داعياً إياها للمجيء. لكنها لم تسـتطع الوقوف إلا بجهد جهيد. نزلت من على درجات السـلم في إعياء، غير قادرة على إيقاف طوفان الدموع.

كانت عينا زوجها تراقبانها في صمت، حتى لحظة جلوسها بقربه. كانت السيجارة على وشك الانطفاء فأشـعل بما تبقى فيها من حياة سـيجارة أخرى. ورشف رشفة من الشاي. وأخذ بالتطلع إلى البعيد. لكن بكاء زوجته أجبره على الالتفات إليها. مسكينة تعاني من الروماتيزم يهرب ابنها من البيت ولا خبر عنه.

عجـز عن النطـق، أما هي فكان لديها ما تقول: «أرأيت نتيجة مـا فعلت، لقد هرب من البيت نتيجة قسـوتك». ظل صـامتا مرغماً على سـماع كلام زوجته. «كان في السادسـة عشرة ومع ذلك كنت تعامله وكأنه في الثامنة! أي أب أنت؟! لا تعرف غير الضرب والقسوة». تناول رشفة أخرى من الشاي ونفث دخاناً من رئتيه تراءت خلاله صورة ولده.

حلم معلّق

دقيقتان فقط، كانتا كافيتان، لكي يرجع الرجل عمّا نواه، نادماً عازماً على التوبة.

كان مشـهد الأيـام الأخـيرة من حمل زوجته، متأزمـاً ومقلقاً بدلاً من أن يكون مدعاة سـرور كبير. الولد رغبة عارمة تجتاح كيانه، وصـورة لا تبارح خياله. الولد دوناً عن البنت هو ما يبتغيه، السعادة كل السعادة والهناء الذي يتضاءل جنبه كل هناء.. وإلا فمن سيحفظ اسمه بعد أن يموت، ومن سيرث كلّ هذا الجاه والسلطان؟ وهل كان يعمل طوال 50 عاماً ليذهب ما كدّسه من مال وما بناه من بيوت وعمارات إلى أزواج بناته؟!

لماذا أنا يا رب؟ سؤال كان يلحّ عليه في لياليه المسهدة، يدفعه لجرأة أكبر في مخاطبة ربه عزّ وجل. أتستكثر عليّ المال والولد يا رب؟ لماذا يخرج من صلبي البنات دوناً عن الأولاد أنا الذي طالما دفعت المال للفقراء والمعوزين. أنا الذي لم أترك فرضاً من فروضك، أنا الذي لم أترك عاماً دون زيارة بيتك المعظم ونبيك الكريم! أنا الذي لم أسيء يوماً لزوجتي وبناتي..

وهنـا لم يسـتطع الرجـل مغالبة دموعه، فـإن الزوجة المؤمنة المخلصـة لزوجهـا هي التي لم تسيء يوماً إليك، ولم تبادل غضبـك وصراخك بسوى الابتسـام والحنان والرأفة التي تليق بسيدة محترمة متدينة حفظتك في عرضك ومالك، وصبرت معك حتى أصبحت رجلاً يشار إليه بالبنان.

لكنني أريد الولد، وإن كنت قد أغضـبتها فيكفي أنني لم أتزوج بغيرها. إن لديها اليوم سـبع بنـات كالأقمـار يملأن عليها البيت، لكنهن لا يملأن قلبي، ويجـب عليها هذه المرة أن تهبني الولد وإلا؛ وإلا ماذا؟! وإلا سأتزوج بغيرها..

كان الرجل قد وصل إلى قراره هذا عندما فتح الباب، فخفق قلبه واضطربت نفسه وسارع إلى المولود. زاغت عيناه وأحسّ وكأنّ جبلاً نزع من مكانه فجثا فوق صدره، لو انشقت الأرض وابتلعته كان خيراً له من أن يرى المولود المرتقب ذكراً مشوّه الخلقة!

وقف ذاهلاً عن كل شيء، حتى وصله صوت ابنته البكر سعيداً منشرحاً.

- إنها طفلة جميلة العينين.

احتضن ابنته البكر وغرق في البكاء.

كعكة محرّمة

قالت السيدة خلود:

– لن تتمكن من الذهاب إلى البحر.

– ولماذا؟!

– لأنهم ذهبوا منذ قليل.

اسودت الدنيا في عيني. خرجت غاضباً من البيت. أمسكت بالحصى ورحت أقذف بها الأرض حنقاً عليهم...

– سألقنهم درساً حين ألقاهم! الملاعين. كيف يذهبون دوني؟! الملاعين.

جلست بالقرب من سياج الحديقة ورحت أبكي. مرّ بي السيد سميح. كان يرتدي قبعة سوداء وبدلة حمراء، ويدخن كعادته..

– لماذا تبكي يا فراس؟

أجبت من خلال الدموع:

– لقد ذهبوا من دوني.

– ومن هم؟

– منذر وأخويه.

– أبناء السيدة خلود؟!

– بلى.

– وإلى أين كنت تودّ الذهاب؟!

– كنت أرغب في السباحة معهم في البحر.

– لا بأس.. سأقلك معي في عربتي.

صحت من الفرح:

– أحقاً ما تقول؟!

– بلى.. تعال معي.

كنت يتيماً، لم يكن أحد من أهل الحي يهتم لحالي. ولم أكن أعلم بالسبب. سرعان ما انفتحت نافذة بيت السيد حميد، وأطلّ منها وجه السيدة خلود، منادية السيد سميح. لبى نداءها سريعاً. وعاد يعتذر لي:

– آسف يا فراس! لا أستطيع أنّ أقلك.

تركني فبدأت بالبكاء مجدداً. وبدلاً من أن ترأف السيدة خلود لحالي؛ تطلعت إلي ساخرة وغابت عن ناظري. انفتحت النافذة المقابلة، وأطلّ منها وجه الخادمة سميرة. كانت شابة جميلة ولطيفة. نادتني. كانت تحمل كعكة لذيذة..

– هل أنت جائع يا فراس؟

– بلى.. أنا جائع جداً

– خذ هذه الكعكة ولا تخبر أحداً أني أعطيتك إياها.

أخذت الكعكة منها وأكلتها بسعادة. كانت لذيذة جداً. لكن سرعان ما انفتح الباب وبرز منه السيد سمير بعصاه. رآني فصاح في غضب:

– من أعطاك الكعكة يا ولد؟!

حاولت الهرب، لكنه أمسك بي من أذني وراح يضغط عليها بقوة...

– إذا لم تخبرني من أعطاك الكعكة فسأخبر الشرطة أنك سرقتها مني!.

خفت كثير...

– أعطتني إياها سميرة.

تركني ودلف إلى الداخل. انتهرت الفرصة فاختبأت. وسرعان ما ظهر ممسكاً بسميرة المسكينة. كانت تبكي. وعندما لم يجدني، إنهال عليها ضرباً بعكازة..

– كيف تجرؤين على فعل ذلك أيتها الوقحة؟! هاه.

بكيت لحال سميرة كثيراً. خرج أغنياء الحي، لما سمعوا الجلبة. ولما علموا بالأمر أشبعوها توبيخاً. أما السيدة خلود فلطمتها لطمة قوية على خدّها، فسقطت المسكينة إلى الأرض، وراحت تنشج بمرارة جعلتني أبكي لها. أحسست بيد قوية تمسك بي من الخلف. كانت يد السيد مازن، المعروف بقسوته وبوجهه ذي الندوب.

كان يخرج لسانه ويمصّ شفتيه بصورة تفزع الأطفال...

– أمسكت بك أيها الولد المشاغب.. إن السيد سمير ستسرّه رؤيتك كثيراً.

حاولت التملص منه، لكنه قادني إلى السيد سمير، وألقى بي عند قدميه. وما أن رآني حتى انهال علي ضرباً بكفه الخشنة...

– أيها المحتال الصغير

قالت السيدة خلود:

– يجب أنّ نضع حدّاً لهؤلاء اللصوص؛ إنهم حثالة.

فجأة أطلت زوجة السيد سمير السيدة وداد من الباب، كانت تضع على جسمها شالاً، وتسعل بشدّة. اندفعت إلي، وأخذتني في أحضانها:

– يا غلاظ القلوب.

صاح السيد سمير:

– أتدافعين عن لصّ؟

– إنه طفل.. مجرد طفل!.

كنت أبكي بشدّة متأثراً بالضرب الذي نالني. أفلتّ من يد السيدة وداد، وهربت بأقصى قوتي.

النافذة كانت مشرّعة

الوقت يمرّ بطيئاً، والفكرة التي تنصرف عن الذهن للحظة؛ تعاود الوثوب بقوّة، والحقيقة أيضاً شاخصة للعين، وكذلك الغدر بكل تفاصيله، والغيظ بلغ حداً ينذر بانفجار الرأس، ولا شيء يستطيع أن يصدّ تيار الفكرة المليئة بالعفن.

ذكرياته تحفر في الذهن أخاديد تتوهّج، تصيح به ألا يستسلم وإلا فإنّ كلّ شيء سائر إلى الضياع، وحسبه أنه لم ينل من حنان أبيه ما يعوّضه عن فكرته المجنونة. ثمّ إن القدر شاء أن يلهب روحه بسياط من نار، فمتى توجّه إلى العمل كان البيت على يمينه، ومتى رجع من العمل كان البيت على شماله، والنفس غضبى، ورائحة الغدر كريهة تزكم الأنوف، ونوافذ البيت مشرعة، تطلّ منها المرأة كأنما تتحدّى الجميع.

بالأمس فقط اقترنت بآخر؛ برجس من ذوي البدن القوي والعين الميتة، صاحب سوابق، مليء ملفه بالضرب والشتم والاعتداء الوحشي. هي إذاً تتوقع أن ينالها ما نالهم جميعاً، غير أن الفرق هنا أنها تملك وهم لا يملكون، وتتصرّف في الورث بينما يعيش وأسرته في شقة قديمة، تشاركهم فيها قبيلة عريقة من الصراصير!.

وها قد حلّ المساء، وبعد ساعات سيكون الأمر قد انتهى، سيواجه الظلم بالسلاح نفسه، بآلة الغدر نفسها، بتشنج أبيه، وهزّه رأسه كالطفل، بسرحانه الدائم، ونظرة عينيه الخائرة. سيغسل من رأسه فكرة وسخة طالما احتقر نفسه بسببها، وعللها بأن الناس جميعهم سيتخذون ما اتخذه لو أنهم كانوا في مكانه.

ولعن الظروف التي ألجأته إلى إخفاء وجهه، وسلوك طريق وعر، والطرق على باب شخص منبوذ من الناس...

– تفضل..

وسيق عبر مجاز مظلم، في آخره ضوء، جلست عنده امرأة مسنة، كرهها من أوّل نظره، وضاعف من كرهه لها اضطراره لدفع المال...

– أرجوك؛ ما اتفقنا عليه فقط بلا زيادة أو نقصان...

أمسكت المال، ووضعته تحت فراشها باحتقار، ثم أخذت نفساً من الشيشة، وقالت في استهانة...

– زبائني يعلمون جيداً مقدار أمانتي.

اللعنـة عليك وعلـى زبائنك، متى كان يقـرن إلى هذه الحثالة من النـاس؟! لكن الأمور يجب أن تعاد إلى نصـابها، ولا محيص عن سـلوك الدرب حتى منتهاه، ثم وضع الميت في القبر، وغسل اليدين من أثر الدّم. وليكفر بعد ذلك عن خطأ لايزال متيقنا من أنه مضطر إليه.

وانتظر ساعة كاملة في الخارج، ثمّ جاءت لحظة شعر فيها وكأنه مشدود لباب العجوز بحبل لا يرى. بدأ التغير بقلبه، ثم شمل رأسه حتى أحسّ بالدوار، وسرى حتى أحسّ وكأنه معلّق بين السماء والأرض! ماذا حدث؟ أتراها أخطأت؟

مشى إلى سيارته في خطوات جهد أن تكون متزنة، أدار محرّك السيارة، وداس على البنزين، لكن السيارة توقفت فجأة واهتزت اهتزازة عنيفة! كانت ضربات قلبه تتسارع دون كابح، أما عيناه فتحوّلتا لعيني بومة، وأحسّ بتشنج يشمل جميع أعضائه.

فتح باب السـيارة وألقى بنفسـه على الأرض، وحمد الله تعالى أنّ الليل بهيم ولا أثر لأحد في هذا المكان.

النبوءة

اتخذت زينتها كأحسـن ما تكون الزينة، ارتدت لباسـاً يبرز معالم جسـدها الفاتن، سـرّحت شعرها بطريقة طالما أعجبته، حتى إذا اطمأنت على هندامها خرجت من سكنها المتواضع وركبت سيارتها قاصدة فوهرر ألمانيا العظيم.

كانت تحسـد نفسـها، لأن هتلر الذي تنحني أمامه رقاب الأعداء قبل الأصدقاء، انحنى لها لرقتها وأنوثتها، خضـع لسلطان جمالها دوناً عن فاتنات ألمانيا بأسرها، لا تملك من حطام الدنيا شيئاً يذكر، لا إرث ولا عائلة عريقة، مجرد فتاة جميلة بهية الطلعة ممشوقة القوام، كانت عارضة أزياء وفقط.

تذكـرت إيفا بـراون في طريقهـا للقاء الفوهـرر كيف تعرفت عليـه، كانت تعمل مصـوّرة بل مسـاعد مصـور في أحد مكاتب غوبلـز وزير الدعاية النازيـة حين دخل الفوهرر فجـأة، ما أقبح شكله وانحناءة ظهره، لكنه كان صاحب حضور آسر، أحست بالعرق يتصبب من جبينها، حتى إذا ذهب شعرت برغبة كبيرة في الحياة، تراءت أمام عينيها مباهج الدنيا ومفاتنها، الاستحواذ على الفوهرر يعني حياة عريضة ملؤها الغنى والجاه.

حـين تكون مـع الفوهرر يعنـي أن يقف لك الرجـال احتراماً وتزلفـاً، وتتقرب منك النسـاء جميعهن، حتى زوجات أصحاب القرار لن يدخرن جهداً في إرضائك، هن لسن قريبات إلى الحد الذي وصلت إليه إيفا براون، وغداً لن تظل الأشياء كما هي عليه اليوم، بل سيكون بيدها كل شيء.

لم تكن إيفا تتصور أن يقع هتلر فريسة حسنها وجمالها بهذه السهولة، مجرد رسالة وضعتها بين أوراقه، وانفطر قلب الرجل الذي دوّخ أوروبا والعالم بأسـره، فإذا بها تتوّج نفسـها ملكة على عرش قلبه.

كانت السـيارة وصلت بها إلى الفوهرر، اسـتقبلت بحفاوة الملكات، وتطلعت لها عيون الجميع بمـن فيهن المجندات، أغلبهن كنّ على درجة من الجمال، بدأن بأكلها بعيونهن، شـعرن بواسـطة الحاسة التي تميزهن أن هذه الفتاة مختلفة، ولن تلبث أن تحوز كل شيء.

دخلت مكتب الفوهرر بابتسـامة مزيجة بين الشـماتة بالمجندات والسـعادة بلقاء زعيم ألمانيا العظيم، تشيع على فمها.

كان بانتظارها هناك، وما أن وقعت عيناه عليها حتى صـوّب باتجاهها نظرته الخارقة، وأخذ بتأملها، تلك إذاً الفتاة التي ستموت معه كما أنبأته العرّافة، ومع رجل يؤمن بالمنجمين ويرى أنهم قادرون على كشف الحجب، لا مجال للتراجع، فليعش لحظته إذاً ويترك المستقبل للمستقبل.

دعاهـا للجلوس، قدم لها سـيجارة فاخرة كما فعل نبلاء أوروبا طـوال قرون، تقبلتها بلطف، قبل أن يسألها على حين غرّة...

-هل أُعجبك؟

تماسـكت رغم شخصـية الفوهـرر الطاغية، وما ترسـب في ذهنها من تقديس للرجل الذي يعشقه الملايين وأجابت...

– بلى.

وجاءها السؤال الثاني صعباً كالأول...

– لماذا؟

لكنها هذه المرّة لم تفاجأ، اتخذت حيطتها وهي تعرف تماماً مفتاح شخصية هتلر، وربما يكون السبب الأول الذي جعل الفوهرر يتعلق بها ويهيم حباً وشغفاً.

أجابت في صوت واضح وعميق...

– أنت أمل ألمانيا بمستقبل يشبه عزّة ماضيها.

التمعت عينا أسـطورة ألمانيا.. أحس بقلبه يقفز سـعادة كعصـفور صـغير غادر عشه تواً، لم يحدث أن أجابه أحد على سـؤاله هذا بوضـوح أشد، فمذ كان في السـجن، ومذ رأى نفسه متربعاً على عرش ألمانيا، وهو ينتظر يوماً يخرج فيه ويجد الملايين يحنون رقابهم وأظهرهم ليوقع عليها.

هو سيد ألمانيا تنبأ به العرافون قبل آلاف السنين، وستظل ذكراه تحكى لآلاف أخرى، أما إيفا فلن تفارقه لحظة، حتى في ساعة الموت ستكون إلى جانبه، هكذا قالت عرافة «لا تخطئ» وصدقها.

مجرفتي تحفر عميقاً

«صـوت المجرفة يشبه مواء الهررة». قلت ذلك لسعاد فضـحكت. أنثى تأكل السمن والعسل؛ وتنام على الفرش الوثيرة، في القصر الفخم، تستطيع الشعور بما يشعر به إنسان يحفر التراب ليل نهاراً!.

جلست فوق الحجر الكبير، وأسندت رأسها إلى جدار الكوخ الخشبي. كانت ترتدي فستاناً أبيض، وتضـع على رأسها تاجاً ذهبي اللون. كانت ملامحها جميلة وبشرتها ناعمة، وفي عينيها حزن يعجبني. متمـرّدة، غريبة الأطوار، تبحث عن المشـكلات، ولا تقيم وزناً لفارق السـن بيننـا، ولا لنظرات الناس وكلماتهم الجارحة.

مجرفتـي كانت تحفر عميقاً في الـتراب، كنت أزيح الأحجار بيدي ثم أعـاود الحفر، وكان يلذّ لها مشاهدتي والعرق يتصبّب من جبيني، رغم أن الطقس في هذه الناحية لم يكن شديد الحرارة. سألتها عـن السـبب فذكرت لي أنها لم تشـاهد يوماً لا أباهـا ولا أحداً من أقاربها يتصـبب العرق من جبينه، فجميعهـم يعيشـون في أماكن مكيفة شـديدة البرودة، وجميعهـم لا يعملون، أما أنا فشـيء آخر، رجل حقيقي!.

ضـحكت لتفكيرها، وألححت عليها بتركي، لكنها أصرّت على مصـاحبتي، أنا الرجل الخمسيني، كثّ اللحية والشارب، الجوّال الذي لا يستقر في مكان واحد!.

خرجت من الحفرة، فلمحت رجلاً طويل الجسم عريضه، يتقدّم نحوي، حركاته تشبه حركات آلة خلط الإسمنت. حتى إذا صار بإزائي، لم يزد على أن قال...

– سيدي يطلبك.. لا تتأخر.

ووقف قريباً مني.

انتبهت سعاد، فقامت من فورها وتقدمت مني...

– ما كان يريد؟

– إن أباك يطلبني..

ردت في نزق:

– لا تذهب..

– لا تخشي شيئاً..

– أرجوك..

مسحت على رأسها:

– أنت لا تعرفيني يا صغيرتي

رميت بالمجرفة، وتبعت الرجل. أخرجت علبة السيجار ورحت أدخن في هدوء، مستمتعاً بالنظر إلى النخيل والأشجار.

لم يعد شيء يخيفني، لقد رأيت من الأهوال الكثير، ومن الرجال أصنافاً شتى، وقرّ في ذهني أن الرجل القاسي أضعفهم، وأنّ كلمة واحدة محسوبة يسددها الإنسان له؛ تقضي عليه في الحال، كما هو شأني حين يعتدي علي أحدهم، أوجه له ضربة أسفل البطن، تتركه يخور كالثور.

تبدى القصر مهيباً، واسعاً ذا مداخل شتى ومداخن تملأ السطح، يقف قربه خادم ضخم الجثة، متجهم الوجه، يتحرك كالآلة، بدت عليه الدهشة، إلا أن رفيقي، أسرّ في أذنه شيئاً، فتراجع إلى الخلف.

دخلنا في ممرّ ذي سجادة حمراء، على جانبيه جدار خشبي زاهٍ. في نهاية الممرّ رجل في الخمسين من عمره، يجلس على كرسي خشبي، يرتدي بدلة داكنة اللون، ويضع نظارة سوداء، يقرأ في كتاب. كان بارداً لدرجة أصابت جسمي بقشعريرة.

وقفت أمامه لأكثر من ثلاث دقائق، دون أن يعني برفع رأسه عن الكتاب. كان من الواضح أنه يريد استصغاري. سخرت منه ومن الحياة التي يعيشها، والتمست العذر لسعاد!. أخرجت علبة السيجار من جيبي، وأشعلت سيجارة ورحت أدخن في هدوء، ملقياً رذاذها على الأرض، وصلته رائحة الدخان، فقفز كأن حية لسعته. لم أغير من ملامحي شيئاً، نظرة الاستصغار نفسها كنت أوجهها له.

وقف مبهوتاً، نظراته مصوّبة عليّ، فيما أقبل ماردان ينتظران إذنه ليمزقاني. تعساء، لا يعرفون من أكون، ولا ما أحمل في قلبي، حتى لو اجتمع عشرون منهم، لما حركوا بي ساكناً، لقد رأيت أمثالهم، ودخلت في معارك معهم وخرجت منتصراً.

صرخ الرجل البارد بعصبية، لكن صوت سعاد جمّده في مكانه. لم أكن أعلم أنها كانت تلاحقني، كان ضعيفاً أمامها، وسرعان ما أشار لمردته بالتوقف...

– أتودّ قتل الرجل أبي؟

– ألا ترين غروره يا ابنتي؟

– أنت من طلب حضوره؟

– عليه أن يعلم أنه في حضرة أسياده

– لكنه غريب عن البلد

عندها توقف عن نباحه، وعاد إلى هدوئه وأمسك بكتابه. ورغم أني رغبت في ملاسنته، أخذت سعاد بيدي إلى خارج القصر. دهشت لقدرتها، فهي لا تمارس سحرها على أبيها وحسب، بل على جميع من في القصر.

سألتني:

– لماذا فعلت ذلك؟

– وماذا فعلت؟

– لماذا رميت برذاذ السيجارة على الأرض؟

– أتودين معرفة السبب فعلاً؟

– طبعاً..

– لذات السبب الذي جعلك تعجبين بعرقي

– ماذا تعني؟

– عندما دخلت قصر أبيك أحسست بقشعريرة في جسمي، فالبرودة كانت في كل مكان، برودة عذرتك بسببها عندما قلت إن عرقي يعجبك، فشعرت برغبة عارمة في التدخين.

ابتسمت في وجهي، وأصرّت على مرافقتي إلى كوخي. كان الناس ينظرون إلينا في استنكار، شيخ بصحبة فتاة جميلة كسعاد.

انصرفت، فدخلت كوخي، واستلقيت على الفراش متعباً، لكنني لم أنم، نهضت واغتسلت، ثم أخذت كتاباً من درج مكتبي المثقل بالكتب وبأشياء أخرى.

كانت هذه عادتي، أقرأ حتى يحل المساء، ثم أجلس عند باب الكوخ أدخن، حتى يحين موعد النوم. في أغلب الأحيان تأتي سعاد لمسامرتي، وفي أحيان أخرى أقضي بقية الوقت في التأمل.

أخرجت صورة فوتوغرافية من محفظة النقود، كانت صورة تجمعني بولديّ التوأم، لقد بلغا الآن السابعة عشرة من العمر، ولا أعلم إن كانا يتذكراني أم لا!.

إن لي طبعاً غريباً لا أعلم له تفسيراً، كيف للإنسان ألا يرغب في صحبة الناس؟ كيف للإنسان أن يزهد في الجميع، بمن فيهم فتاة صغيرة مثل سعاد، تطلب حياة ذات مغزى، من رجل ممزق لا يعي معنى للحياة، ترك خلفه زوجة وطفلين، واختار الحياة متشرّداً من مكان لآخر.

رجل مثقل بحكايات شتى، تراود مخيلتي، لكن أياً منها لم يعد يشفي غليلي، أشعر بما تشعر به سعاد، يمكن أن تكون لقمة سائغة لمن ليس له ضمير، يزين لها ترك كل هذا الثراء مقابل معنى للحياة!. كشأني أنا؛ لم أكن فقيراً ولا ضعيف الحال. كنت قد ورثت مبلغاً لا بأس به من المال، وأكثر من عقار، وكان يمكنني العيش بهدوء، لكنني لم أكن سعيداً.

تعرفت على البروفسور العالم الكبير، فتح لي مكتبته أنهل منها ما أشاء؛ فزاد إحساسي بالشقاء والتعاسة. وردني مسج منه يوماً يطلب لقائي في بيته، ذهبت إليه، وجدته فاتحاً فاه وهو على كرسيه! عندها قررت أن لا أبقى في مكاني، ودّعت أهلي وكل من أعرف ورحلت باحثاً عن شيء مختلف. مررت بمحطات شتى، وآخر محطاتي، هذا الكوخ وهذا العمل الشاق، وهذه الفتاة الجميلة، ولا أعلم غداً أين سيكون مستقري.

قرص الشهد

«جوزيفين» عقبة من أعتى عقبات الدهر لا يمكن إزاحتها بسهولة، لكن الرغبة في وريث للعرش قوية وطاغية وتسحق كل من يقف بوجهها حتى لو كانت رفيقة العمر الأولى، أما قرص الشهد «ماري لويز»، فيفضل الموت على تركها لسواه من ذوات الأرومة وأبناء الطبقات الأرستقراطية.

بلى هو ابن لفلاح فقير وامرأة لاكتها ألسنة السوء، لكن المعجزة المحققة على يديه، لا يستطيع تحقيقها سواه، إنه نابليون إمبراطور فرنسا الأعظم، وغداً يتوج على العالم برمته، بمن فيهم ماري لويز.

ما قيمة هؤلاء أمامه؟! لكنه يعلم في قرارة نفسه أنه يتوق لنسب شريف، حتى حبه لأمه لا يعني أنه لا يخجل من ماضيها، أما أبوه فتوفي وأراحه من عاره، وعليه الآن أن ينشئ أسرة مجيدة تنتسب لشخصه وعظمته، ولن يتحقق ذلك دون زوجة وولد، وطالما أنه يبحث عن الولد، فلا بأس بتخير امرأة هي الأجمل في أوروبا بأسرها، أما جوزيفين فلا يزال يحبها، لكنها عديمة النفع، هو مازال يتذكر صبرها معه وتحملها حياته الأولى الشقية، لكنها أخذت ما تستحق وزيادة، إسرافها وبذخها بات حديث أوروبا كلها، بل إنه يعلم بسلوكها الشائن لكنه يغض الطرف، ماذا تطلب أكثر هذه المرأة العنود؟!.

قال لنفسه لابد أن أحسم أمري الآن وفوراً، أعرف جميع ألاعيبها، إنها ستأتي الآن، وحينما أفاتحها بأمر الطلاق تتصنع الإغماء، بل وتخرج قارورة من جيبها وتدعي أنها سم تعتزم تجرعه إن لم يكف عن حديث الطلاق، لكنه هذه المرة لن يتراجع أبداً.

وإذ دخلت جوزيفين الجميلة، التي أسرت قلوب الشعراء والفنانين، وبدت في أبهى زينتها، واقتربت منه، متشبثة بالحب الذي تعرف يقيناً أنه مازال حياً في قلبه، أحس بالضعف لكنه تمالك نفسه سريعاً، وقال في صوت جهد أن يكون ثابتاً...

– ماذا قررت الآن؟.

– بشأن ماذا؟.

صاح في غضب:

– لا تتغابي يا جوزيفين.

انخرطت في البكاء، ثم ادعت الإغماء، لكنه اقترب منها وهمس في أذنها...

– ألاعيبك هذه لم تعد تنطلي علي.

وإذ أحست بانكشاف أمرها، أفاقت من رقدتها، واستبدلت الإغماء بالمرح:

– لا تعد للموضوع إذاً

قال في نفاذ صبر:

– تعلمين يا جوزيفين أنه لا أحد يقوى على مخالفة نابليون ولا حتى بابا روما نفسه، ومع ذلك منحتك وقتاً طويلاً لتعاودي التفكير.

أجهشت في البكاء...

– ماذا تجد في ماري لويز لا تجد في أنا صديقتك وزوجتك؟.

قال وعيناه تطلقان حمماً:

– أريد وريثاً يا جوزيفين وأنت لا تستطيعين منحه لي.

تهالكت على الكرسي في شبه إعياء، بينما خرج من الغرفة إلى مكتبه الأثير.

وضع رأسه بين راحتيه، وصورة الولد تملأ عليه كل جارحة، إلا أن ماري لويز أطلت بوجهها الجميل، فسارع إلى إخراج الكوب، كانت صورتها مطبوعة عليه. ما أجملها من فتاة، هي وحدها اللائقة بإمبراطور فرنسا العظيم، لكن جوزيفين لن تقبل بالطلاق والوقت ينفد والوزير «فوشيه» لا يترك ساعة دون أن يذكره برغبة الشعب الفرنسي بوريث للإمبراطورية، لا يترك ساعة دون أن يذكره بخصومه الطامعين بقرص الشهد، فمتى يتحقق له ما يتمنى؟!.

ماذا تريد جوزيفين أكثر مما أعطيتها؛ إمارة لها ولابنها وابنتها، حساب مفتوح في البنك، جميع ما ترغب فيه ينفذ دون اعتراض، لكنها تأبى أن تقبل الطلاق. لكنه حسم أمره هذه الليلة؛ غداً ستكون جوزيفين مطلقة، وماري لويز زوجته، ولن يترك لأحد أن يعترض على ما نوى، والويل لمن يقف في طريقه!.

فلاش باك

كان يقف هناك. كان يبتسم رغم الألم والطقس البارد. حتى إذا انتهينا من التصوير، ألقى بجسمه فوق المصطبة على يساره.

كان يتنفس بصعوبة، حتى أن العرق كان يتفصد من جبينه. ورغم ذلك أخرج علبة السجائر وراح يدخن. كانت عيناه تراقبان المكان؛ ثمة طريق مسفلت، وحديقة عريت أشجارها، وبيت من خشب. ولا شيء آخر يدل على الحياة، سوى باب مفتوح يطل منه ثلاثة شبان افترشوا الأرض.

جلست بالقرب منه. كنت أعلم أنه لا يستطيع السكوت طويلاً. وما هي سوى لحظات حتى بادرني:

– هل بدوت قوياً؟

– أجل وجميلاً أيضاً

قاطعنا منذر. أقبل وفي يده رسالة أعطاها لهاشم. اضطرب ورمى السيجارة من يده وفتحها بسرعة كمن يترقب أمراً جللاً. حملق في الرسالة بتأثر، ثم رفع رأسه إلى السماء. ساعدته على القيام، فاتجه إلى الداخل. لحقت به عند الباب..

– ماذا بك؟

– لا فائدة.. انتهى كل شيء.

– ماذا تعني؟

تندت عيناه بالدموع. ودلف إلى الداخل.

×××

كنت أسترق النظر إليهما، حينما كنا نجتمع حول الطاولة عند باب المقهى. فأعجب للحب الكبير الذي يجمعهما. كان يبدو لنا جميعاً أنهما منسجمان؛ كانت عيناه لا تغادرانها، وكانت تتطلع إليه عند كل لفتة أو كلمة تصدر عنه. لذلك كانت صدمتي كبيرة عندما أخبرني بنيته الانفصال عنها!.

وضعت كوب الشاي. وأرحت ظهري على الكرسي. وعيني تنصبان عليه غضباً..

– أصدر عنها ما يسيء؟

– لا.. ولكنه اتفاق بيني وبينها.

– أي اتفاق؟

– عندما قررنا الزواج، أخبرتها أني رجل مزواج، يمكن أن أطلقها في أي وقت.

– لكن من يراكما يحسبكما أسعد زوجين؟!

– أنا لا أكرهها.

– ولماذا ترغب في الانفصال عنها إذن؟!

لم يجبني، بل أدار برأسه إلى الجهة الأخرى وراح ينفث في سيجارته بهدوء. الهدوء نفسه الذي يحرق الأعصاب!.

– هل أخبرتها بالأمر؟

– بلى.

– وكيف كانت ردة فعلها؟

– لم تجبني.

هززت رأسي ساخراً منه، ومن الجنون الذي يعشعش في رأسه. لن يلبث الأصحاب أن يقبلوا وسينغمس في أحاديثهم ونكاتهم حتى قمة رأسه.

×××

كنت من اقترح الفكرة، فتحمس لها الزملاء. آمنا جميعاً أن هذا الأفاق المدل بنفسه وبماله، لا علاج له سوى لطمة قوية على وجهه، تعيده إلى صوابه، وتجعله يدرك حجمه جيداً!.

انتظرنا ليلة الجمعة بفارغ الصبر. كنا نعلم بمغامراته الليلية، موقنين بأنه لن يرجع إلى السكن إلا في الهزيع الأخير من الليل. فكان أمامنا متسع من الوقت لتنفيذ ما اتفقنا عليه!.

جعلنا نضحك ونحن نتخيله يفتح الباب، فيفاجأ بما أعددناه له. حتى إذا سمعنا صوت أقدامه، اعتصم كل منا بالصمت، مترقباً ما يحدث في صمت الليل.

فتح الباب بعنف كما هي عادته. لكنه ما إن وضع قدمه داخل الجناح، حتى امتدت رجله على آخرها. حاول أن يقاوم فارتفع إلى الأعلى مثل مركبة فضائية، ثم هوى بسقطة رجت الأرض تحته!.

لا أعلم كيف أمسك الزملاء بضحكاتهم، وهذا المشهد يجري أمام أعينهم؟!. أما أنا فلم أجد وسيلة أخفي بها ضحكتي، وأنا أراقب المفتون بنفسه عاجزاً عن الوقوف على أرضية مصبوغة بالماء والصابون! سوى رداء وضعته على فمي وضغطت عليه بكل قوتي!.

اضطر إلى خلع نعليه، ولما لم يجده ذلك نفعاً، زحف على الأرض، حتى وصل إلى فراشه، فتحامل على نفسه وألقى بجسمه عليه.

ضغطت على الزر فانتشر النور، وعلت ضحكاتنا، ونحن نشاهد الأفاق مبتل الملابس، يخفي وجهه بذراعه، وهو يردد: سأنتقم منكم.

×××

كان وجه صديقي في تلك اللحظة، أشبه بسفينة تمخر عباب البحر، باحثة عن ميناء ترسو فيه!. كان لايزال يتمسك بأمل واه بعودة ياسمين إليه؛ المرأة التي شغفته حباً وبادلته المودة، وكانت زوجة وفية بحق.

سارعت بالخروج من الغرفة، محاذراً أن يشاهد الطبيب والممرضة دموعي. حتى إذا ابتعدت بما فيه الكفاية، أخرجت علبة السجائر ورحت أدخن في وجوم، مطالعاً من خلال الزجاج حركة السيارات في الشارع ليلاً.

أفقت على صوت الطبيب يقف ورائي. سألني دون مقدمات:

– هل تهمك حياة صاحبك؟

– فوق ما تتصور.

– يجب عليك مساعدتي من أجل شفائه.

– أنا مستعد لأن أفديه بدمي.

– لكنه لا يريدك أنت.

– هل يطلب ياسمين؟

– أنت تعلم حكايته إذن؟!

– بلى.

– عليك أن تأتي بها.

– المسألة ليست سهلة كما تتصور.

– أنا لا يهمني سوى مريضي. إن أردت الشفاء لصديقك فعليك أن تأتي بياسمين له.

– هل مرضه خطير؟

– إنه يشكو من ذات الرئة ويمكن شفاؤه، لكن ألمه النفسي كبير ولا يمكنني عمل شيء بشأنه.

– لكن ياسمين ميتة يا دكتور!.

×××

حين دعاني صاحب الكوخ إلى زيارته، أملت أن أجد شيئاً مختلفاً، لكني لم أجد فرقاً بين

النظر من الأعلى إلى الأسفل أو من الأسفل إلى الأعلى. عنيت أنك لو نظرت من الأعلى فستشاهد مقبرة، بينما ستشاهد كوخاً خشبياً معلقاً عندما تنظر من الأسفل!. لكنني أحسست بألفة مع الكوخ، رغم جلال المكان والقبور على مرمى البصر.

التقيته في ملعب كرة القدم فتذكرت فيه زميل الدراسة الثانوية. وحين علمت أنه صديق لابن عمي، قررت تلبية دعوته. استقبلني بترحاب وهو يشد على يدي.

غاب مقدار خمس دقائق ثم أقبل يحمل مائدة الشاي وبعض الأطباق لزوم السهرة. كان سعيداً بوجودي. وكان فمه لا يفتر عن الضحك والابتسام. أما أنا فظللت كعادتي هادئاً متحفظاً في الضحك، وإن أبديت من الاهتمام به ما جعله لا يتوقف عن الكلام.

بعد ساعتين كنت أغالب فيها النعاس، اعتذرت إليه. ورغم إلحاحه الشديد أصررت على الانصراف. أمسكت بمقبض الباب وهممت بالخروج. وعندها بكى!. وجلس إلى أقرب مكان. دهشت وأحسست بالحرج الشديد. تطلع إلي والدموع مازالت في عينيه...

– لماذا تكرهون كوخي؟.

حاولت الكلام لكنه قاطعني:

– هل ذنبه أنه يطل على مقبرة؟!

ومرة أخرى قاطعني:

– صدقني لن تجد كوخاً مثل كوخي. ولا منظراً أجمل من منظر القبور.

ثم انتفض مرة واحدة، وفتح الباب.. وقال:

– لا حاجة بي إلى صديق لا يحب كوخي.

انصرفت هازاً رأسي عجباً من الكوخ وصاحبه!.

×××

استيقظت لأجد نفسي في الغرفة لوحدي. كان صديقي قد تركني لأمر طارئ على أن يعود سريعاً. كان الباب مفتوحاً، والمروحة لاتزال تصدر صوتها الحاد بإصرار، والمصباح المعلق فوق الباب مضيء، بينما كوب الشاي كما تركه صديقي إلى نصفه، والرطب هادئ في مكانه في السلة.

شبكت أصابعي وراء رأسي ووجهي تعود إليه ملامحه، ورحت أتأمل في المكان، مستمتعاً بالكسل في ليلة ذات نسيم عليل.

المكان لم يتغير فيه شيء، عدا الحقل الصغير المسيج بالطوب، فيما كان بالأمس مسيجاً بسور من حديد، والبقرة التي يرتفع ثغاؤها شاقاً الصمت.

كانت الغرفة قد بنيت منذ أعوام عشرة، ولم يعبأ الحاج علي رحمه الله ببنائها بشكل متقن أو حتى بصباغتها، حتى بعد أن أصبحت ملتقى أصدقائه وزملائه من أهل القرية. كانوا يقبلون في كل ليلة يتبادلون الأحاديث، ويشربون النارجيلة والشاي، وكنت أجلس إلى جانب صديقي قرب الباب، وأحياناً خارج الغرفة مستعدين لأي أمر يصدره الحاج.

كنت أضيق وإياه ذرعاً بالطقس الرطب وبجو الغرفة الخانق، وبالدخان يملأ جوانبها، وليس بكبار السن وأحاديثهم، كنت وصديقي نفضل الجلوس إلى جانبهم أكثر من الجلوس مع أندادنا. كانت نكاتهم وذكرياتهم عن أيام الغوص تبعث فينا السعادة، والحاج يعقوب بالتحديد كنت أحبه جداً، وأجد فيه من الطيبة وحلاوة المعشر ما يجعلني أتلهف لمجيئه ولأحاديثه عن أهل البيت عليهم السلام. كان ذو ثقافة لا بأس بها، وفي أحيان كثيرة كان يقرأ تحت طلب الحاضرين أبياتاً حسينية، سرعان ما يضج المجلس على إثرها بالبكاء. أما الحاج خميس رحمه الله، فرؤيته في مكانه بصدر الغرفة يشرب «النارجيلة» صورة لاتزال تنبض بالحياة كأنها تحدث الساعة.

×××

ملمس الحشائش لايزال ندياً. اخترت هذا المكان بالذات لأنه يشبهني!. أجلس مسنداً ظهري إلى الجدار. عمود الكهرباء ينتصب أمامي شامخاً، والمصباح الضخم يمنحني ضوءاً لأباشر القراءة في هدوء.

عيني تتابعان كلمات رواية «الشحاذ». ضحكة تافهة كصاحبها تصلني لتقطع علي استغراقي في القراءة. أهز رأسي وأعود إلى القراءة.

تؤلمني رقبتي. أتمشى قليلاً. تطل بطيخة صغيرة برأسها. أتأمل فيها مسروراً. يمر قط من أمامها. أستاء فأسارع بالتقاط حجر أمامي ألقيه عليه بقسوة فيفر هارباً. أعود إلى مكاني، أفتح الرواية وأستغرق في قراءتها مجدداً.

×××

رفع السمكة، فتدلت من الحبل مثل نمر مسلوخ الجلد!. كنت أنظر إليها معجباً بحجمها الكبير، متسائلاً كيف استطعنا الإمساك بها وبأخواتها!. كانت أشعة الشمس تضرب جلدها فتنعكس على وجهي. وبينما كنت أتأملها، كان فرحان يطالع أقصى الشارع؛ منتظراً ظهور خليل. لقد بررنا بوعدنا، وعليه دفع الثمن.

لم يمض وقت طويل حتى أقبل خليل بسيجارته وقميصه الأزرق وبنطاله الرمادي. ورغم أن

مرأى السمكة أثار دهشته وفتح فاه، إلا أنه سارع مكابراً وصرف عينيه؛ لم يعترف قط بالهزيمة؛ فكيف يمنى بها من قبل بحارين شابين؟!.

أمسك بالحبل من يد فرحان، وأنزل السمكة، وراح يشق بطنها وعيني فرحان تنظرانه في هدوء...

– لا نقود في بطنها!.

– سأخرجها من بطنك؟!.

أخرج خليل حافظة نقوده بيده الملطخة بالدم، وناولني مائة دينار.

ركبنا القارب؛ واتجهنا إلى الميناء، مسرورين بربحنا الوفير.

– إنها تجارة مربحة.. أليس كذلك؟

– بلى.. يمكننا أن نجني الكثير من المال.

اقتربنا من الميناء. كان نزار بانتظارنا. غمزني فرحان، فابتسمت.

وصلنا الميناء، فألقيت بالحبل إلى العامل، ونزلت مع فرحان في وقت واحد. أقبل نزار مسرعاً؛ كان غاضباً...

– بعت السمكة أليس كذلك؟!

– وماذا كنت تتوقع؟!

– توقعت أن تصبرا قليلاً

– أيصبر إنسان على رزقه؟!.

– لاتزال هناك اثنتان

– كان الاتفاق على ثلاث

– دعك من هذا؛ أتود الاثنتين أم نبيعها؟!

– ستبيعانها أيضاً؟!

– مؤكد.. وإلا كيف ندفع للرجل ثمن قاربه؟!

– انتظراني حتى المساء.

– أتحسبنا مغفلين أم حمقى؟

– صدقاني.. سأشتريها منكما ليلاً وبسعر أفضل.

– أنت مسكين نزار. صدقني لن يفيدك حبيب بشيء؛ إنه مخادع.

– لا تتركه يلعب بعقلك.

– لماذا تقولان ذلك؟!

– لأنك ساذج يستغلك لمعرفته بمقدار حبك لأخته.
أدار ظهره، ثم جلس على أرض الخشبية في شبه الخشبية في إعياء.
تبادلت النظرات مع فرحان. جلس إلى جانب نزار، وأخرج علبة السجائر وراح يدخن في هدوء...
– أتعلم نزار؟
– ماذا؟
– أنا مندهش منك؟
– ولماذا؟
– لأنك أكثرنا علماً والجامعي الوحيد بيننا، ولك من القوة ما يحطم عشرة من أمثال حبيب، ومع ذلك تسلم عنقك لشخص مثله.
– أتحبها إلى هذه الدرجة؟!
– لا تحاول الكتمان، الجميع يعلم أنك تحب أخته حباً جماً.
– أنتم لا تفهمون حقيقة الأمر.
– أعلمنا إذن بالحقيقة.
كان على وشك النطق، لكن حانت منه التفاتة، فشاهد حبيب يتقدم مسرعاً، عابساً كعادته. انزعجت كثيراً، ورفعت قدمي عن القاعدة الخشبية، محاولاً تجنبه. وحالما وصل ضرب رجل نزار بقدمه الوسخة...
– لا يمكن الاعتماد عليك أبداً.
لم يفعل نزار شيئاً، بل صمت صمتاً أزعجنا. هز فرحان رأسه أسفاً...
– لماذا تهز برأسك؟
– أهز برأسي وقتما أشاء وإذا لم يعجبك الأمر فالبحر أمامك.
أدركت بسرعة ما كان يريده فرحان، فما إن رفع حبيب يده؛ حتى أمسكت بها من الخلف، ثم شددت على رقبته بقوة، فأصبح بين يدي عاجزاً عن أية حركة.
قام فرحان بسرعة وأمسك بذقن حبيب...
– ستخبر نزار بالحقيقة.. الآن.. وإلا هشمت أنفك.
– أية حقيقة؟!
– لا تعذب الرجل أكثر من ذلك.
– عن أي حقيقة تتحدث؟

– انطق وإلا كسرت عنقك.
– ماذا يجري؟
– ستعرف الآن.
شددت بقوة على رأس حبيب حتى ضج من الألم...
– لقد خدعك هذا الزنيم.
– بماذا خدعني؟
– تكلم وإلا قتلتك.
– إن أسماء مخطوبة.
– ماذا!؟
– هذه هي الحقيقة.
– لم يشأ إخبارك لكي لا يفقد دالته عليك.
– لقد استغلك كثيراً.
رفعت يدي عن عنق حبيب، فارتمى على الأرض وهو يمسك برقبته متألماً. أما نزار، فبدا أشبه بمن ألقي من الطابق العاشر. توارى للحظات، ثم أقبل يحمل وعاء، ما إن شممنا رائحته حتى أسرعنا بالإمساك به، كان «بترولاً» أراد أن يشعله في جسم حبيب.
– إنه لا يستحق أن تدخل السجن بسببه.
– أما إذا أردت أن تشبعه ضرباً فلن نعارضك
كأنما كان نزار ينتظر هذه الكلمة ليخرج من القمقم، هوى بكفه الخشنة على وجه حبيب، حاول أن يقاوم، لكن نزار عاود الضرب، فلم يترك مكاناً في جسمه إلا وطبع عليه كفه الخشنة!.

أربعون

قال الحاج علي؛ إلى رحمة الله يا زوجتي العزيزة، ثم انفجر في البكاء بعد مجاهدته إظهار الحزن أمام أبنائه، حتى إذا سمع صوت أذان الفجر، تحامل على نفسه، فتوضأ، واتجه إلى المسجد.

كانت روحه في غشاء من الحزن؛ فالعمر الذي قضاه مع زوجته شمل كل ساعة من ساعات حياته، وكل شبر من القرية، حتى هذا المسجد العريق يذكره بزوجته، هنا كانا يقضيان ساعات السحر في قراءة القرآن والأذكار حتى بزوغ الفجر.

لكنه يخرج من المسجد هذا الفجر دون زوجته، رفيقة أربعين عاماً بحلوها ومرها، وبعد أن اعتادت نفسه رؤيتها ليل نهار، والاستماع إلى أحاديثها وخفة دمها وهي تسرد حكاياتها، وابتسم رغماً عنه ثم عاد وجهه مكشراً فهو حزين، وأحس عندها بالغثيان، وبثقل يشمل قدميه فكأنهما تنوءان بحمله، وسقط على الأرض.

فتح عينيه فوجد نفسه على سريره، وبالقرب منه ولداه حسن وحسين، أما ابنته خديجة فواقفة قرب الباب في عباءتها السوداء تنظر إليه بحزن، وقد انحدرت دموعها على وجنتيها.

ابتسم لابنته فأقبلت وطبعت على رأسه قبلة كما قبلت يده...

التفت إلى ولده حسن...

- ماذا قال الطبيب؟!

- تلزمك الراحة أبي.

- هو السكري إذن؟

وسكت حسن، فقال في مرارة...

- استعنا بالله على البلاء...

- الحاج أبو ياسين ينتظر هل أدخله أبي؟...

- أدخله بني.

فتح الباب فدخل أبو ياسين بابتسامته الطيبة، وعندما خرج الجميع، لاذا بالصمت لدقائق.

- كانت نعم الزوجة وهيهات أن أجد مثلها، ما أتعس الأيام التي سأعيشها بدونها.

وتطلع إلى أبي ياسين...

- بالأمس كانت تصحبني إلى المسجد، أما اليوم فلا رفيق لي غير المرض.

- ستجدني إلى جانبك.

- فيك الخير والبركة غير أنها كانت سلوى حياتي.

ها هو الصديق العزيز يغادر الدار، بعد أن أحس بحاجته للراحة، هو نفسه انقلبت حياته بعد موت زوجته، ولايزال رغم مرور 3 أعوام يثير شفقة من يراه، أما هو فيعلم أنه ومنذ نصف ساعة فقط، منذ سقوطه وسط الطريق، والعيون التي كانت تلحظه بالأمس بإكبار، لن تكف عن النظر إليه وكأنه هرم يسير إلى القبر.

حاول أن ينام على جانبه الأيمن، إلا أن ألم الظهر منعه من ذلك. ولم يجد بديلاً عن طلب مساعدة أبنائه، حتى في هذا الوضع كان يستعين بزوجته ويعينها كذلك، لكنه اليوم لوحده.

وقال لنفسه؛ الآن ستسير الحياة من سيء إلى أسوأ، والسكري أول الخطوات إلى القبر، وغداً لن يمر يوم دون أن يشعر فيه بالانحدار، والعزاء في الذكريات وبر الأبناء، غير أن رفيق الحياة كان حياً يرزق، يستمد منه شعوره بالحياة.

علبة السردين

دار الرجل ثلاث دورات على العمارة المتاخمة للشارع العام، ثم رجع لشقته في الطابق الأول وقد انتفخت أوداجه من الغضب. فتح جميع النوافذ، ثم أخرج علبة السجائر، وارتمى على الكنبة الكالحة اللون، وراح يدخن في نفاد صبر...

– يجب علينا أن نغير هذه الشقة.. إنها وباء!

كانت زوجته ترضع طفلها، فابتسمت في لامبالاة...

– وأين تريدنا أن نذهب؟

أخرج السيجارة من فمه واعتدل في جلسته...

– إلى أي مكان سوى هذه الشقة التي تشبه المخزن العفن...

– لكنك من أصر على السكن فيها... قالت المرأة لنفسها.

– يجب أن أحدث صاحب العمارة! لا يمكن أن يتركنا في علبة السردين هذه!

تبدت الشقق الجديدة الفخمة من النافذة في الأفق البعيد، ابتسم ثم قال بمرارة...

– تأملي في تلك الشقق الرائعة، كم هو جميل لو انتقلنا إليها.

لكنها كانت تعلم أن كلماته هذه سيغيرها ليلاً، وسيحاول ما أمكنه تحقيرها في عينيها، وسيدعي أنها لا تستحق المال الذي يدفع فيها، وأنها بعيدة وباردة، وكل من فيها أنانيون، وأنها.. وأنها..

– إنها جميلة بالفعل.

أخذ نفساً من سيجارته وقد تبدى الوجوم عليه دفعة واحدة، لو يستطيع فقط تأمين المال اللازم!...

– سأحدث صاحب العمارة الآن...

ثم خرج وعين زوجته تنظرانه بدهشة، لكنها عادت وابتسمت في مرارة، حتى لو انتقلت إلى شقة أخرى فإن جميع الشقق في هذه العمارة رطبة مليئة بالحشرات، وليس هناك من أمل في تلك الشقق الجديدة الفخمة، عدا عن أن كل دينار يصرف مجدداً محسوب هنا، وسيفتقر زوجها إليه...

لم تمض سوى 10 دقائق ووجدت زوجها يدخل الشقة تسبقه سعلته، ألقى السلام ثم ألقى بجسمه على الكنبة...

– لقد تحدثت مع صاحب العمارة

– وماذا قال؟

– قال إن هناك كثيرين ينتظرون أن نخرج من شقتنا.

– الوضيع.

– وقال أيضاً إن المبلغ الذي ندفعه لا يشكل شيئاً بالنسبة له.

– أمر متوقع من رجل لا ضمير له.

– وقال أيضاً إنه يرأف بنا ولولا ذلك لما قبل بنا في العمارة.

– لقد تجاوز حدوده كثيراً.

ثم وقف دفعة واحدة وقد ركز عينيه في عين زوجته...

– ليس هذا هو المهم؟

– ما المهم إذن؟

– كنت زوجته قبلي أليس كذلك؟

بدا الانزعاج على محياها...

– لم أخف عنك ذلك.

– لكنك أخفيت عني أنك سكنت في تلك الشقق.

– وهل يفرق الأمر بالنسبة لك؟

– لقد عشت معه حياة مرفهة.

اختلجت شفتيها ثم زوت بوجهها عنه...

– وماذا في ذلك؟

– تطلعي في عيني جيداً..

ثم أمسك بذقنها وأدار برأسها إليه...

– كان يجب عليك أن تخبريني بذلك.

تدافعت دموعها بغزارة، وتحول المكان إلى ما يشبه سفينة في عرض البحر...

– أتشك في حبي لك؟

– أبداً.

– فلماذا تسأل إذن؟!

– لقد عشت معه حياة مرفهة!

– أقسم لك أني من اختار الطلاق.

صاح بنفاد صبر...

- فماذا وجدت في لترتبطي بي؟

صاحت بانفعال...

- وجدت فيك ما لم أجده في غيرك؟
- وأي شيء لم تجديه في الآخرين؟
- وجدت فيك الطيبة والحنان، أنتم هكذا دائماً تحسبون أن كل ما يشغل المرأة المال، لكنها لو وجدت من يرعاها لفضلت عليه أغنى الأغنياء.

ثم تراجعت إلى الكرسي، وأخذت في البكاء بحرقة، أوقفت الرجل كالتمثال لعدة دقائق حتى انطفأ آخر رمق في السيجارة، وارتمى رمادها على الأرض.

تقدم منها وأمسك برأسها بحنان، ثم طبع على وجهه ابتسامة حزينة...

- لكنني فقير.

رفعت رأسها والدموع مازالت في عينيها...

- أنت أغنى عندي من كل من عرفت.
- ستظلين طوال عمرك في هذه الشقة القديمة.
- إن قلبك أكبر من كل شقة يعرضها الرجل اللئيم.

أمسك براحتيها ثم طبع عليها قبلة.

الجنازة الصغيرة

تهادت الجنازة الصغيرة بهدوء وسط الأرض الخلاء، كان الرجال يتمتمون بذكر الله والاستغفار للميتة الصغيرة لكن بصوت خفيض، حتى إذا حادوا الكوخ، تطلعوا إلى بعضهم في ريبة، خوفاً من أن يخرج أبو موسى لهم ويسلقهم بكلماته الجارة كما هو شأنه دائماً.

كان عددهم اثني عشر نفساً، يتقدمهم رجل في السبعين صحيح الجسم لدرجة تدعو إلى الدهشة، أما البقية فتتراوح أعمارهم بين الأربعين والخمسين، فليس بين المشيعين شاب واحد.

تقدم الرجل بضع خطوات حتى إذا اطمأن عاد مع المشيعين يرفع النعش، ويرفع صوته بالتسبيح والتهليل. مروا أولاً قرب بيت أبيض، كانت تقف قرب بابه امرأة مسربلة بالسواد، كانت تبكي بحرقة، ثم مروا يساراً فوجدوا ثلاث آسيويات حاسرات الرأس في الثلاثين من أعمارهن، رمين بأعقاب سجائرهن حالما شاهدوا الجنازة، أما آخر ما مر به الرجال، فطفل جالس عند باب البيت يصلح عجلة دراجته.

- الحمد لله لم يظهر حتى الآن.
- اسكت رحم الله والديك؛ يمكن أن نجده بيننا.

ورمقهم الرجل بقسوة، فتعانوا حتى مواراة الفتاة الثرى.

في طريق عودتهم، قال أحد الرجال:

- لن ننجو منه الآن.

قال الرجل في تسليم:

- لا بأس طالما أننا دفنا الفتاة.
- حتى متى يتربص بنا هذا الشيطان؟! لابد من أن يوقف عند حده.
- قف أنت بوجهه إن استطعت.

وكأنما مسه تيار كهربائي، إذ لاحظ الجميع ارتعاشة جسمه، لكنهم جميعهم لزموا الصمت.

قال الرجل:

- الحقيقة أني لا أستطيع تفسير أمره حتى الآن؟
- إذا كنت أكثرنا علماً وتجربة لا تستطيع أن تفسر ما يحدث له، فكيف بنا نحن الجهلة؟!

أراد أحدهم الكلام، لكن الرجل لكزه في بطنه. كانوا قد اقتربوا من كوخ أبو موسى، وقلوبهم تدق بعنف أملاً في ألا يروه، لكنه كان هناك جالس قرب باب كوخه. أسرعوا من خطواتهم كأنما

هم في سباق، لكنه صاح بهم ساخراً:

- دفنتم المسكينة إذن؟

قال الرجل في صوت جهد أن يكون متزناً:

- وهل أردت أن نتركها دون دفن؟

- لا.. لكن كان يجب أن تدفنوا من تسبب بموتها؟!

اضطرب الجميع بمن فيهم الرجل.

قال في صوت مرتعش:

- وهل تعرف من تسبب بموتها؟

صوب أبو موسى عينان حمراوان له وقال في قسوة:

- أعرفه وإن شئت أخبرتك به.

لكن الرجل وبدلاً من أن يرد، زوى بوجهه ومضى بصحبة الأحد عشر رجلاً بسرعة.

بحر بن «ضب»

أنا بما أحمل من عار، مثل ضب لا يستطيع رفع رأسه من الجحر، خوفاً من أن تناله العقبان. تتحين الفرصة للانقضاض على كتفي، دون رأسي، أدعوها إليه فلا ترغب بسوى كتفي!.

دائرة مغلقة ضاع مفتاحها لا تكف عن هصري، أكاد لا أتبين فيها خيط الفجر الأبيض من الخيط الأسود، وليس لدي سوى قرطين.

ما معنى راية ترفرف وسيف يقف منتصباً منها، وطقس جاف لا نسمة هواء فيه، وصوت خيل تنهب الأرض، تصدمني كل ليلة، لأصحو فأجد يدي يابستين مثل عودين، تتحدران حصى أسود تنصبان علي بخوف لا حد له.

سماء ملبدة بالغيوم، طير تقذفني بكريات ثلج تخترق رأسي، ظلام يلهب ظهري بألسنة الجحيم، دوائر سود أدخل فيها دون إرادة، وسم زعاف يهزم رئتي فأتقيأ كبدي، ذئب يركض نحوي ينهشني، أصحو لأجد الدم والقيح ينضحان من يدي، أضرب رأسي بالجدار، أنتفض كالعصفور. لا أعي أن يدي تحولتا إلى عينين تتفجران بدم ملأ سرير نومي وزحف إلى الأرض. وعندها لا أجد خياراً آخر؛ كنت أضع السكين فوق نار الشمعة حتى تشتد حرارة ثم أجرح يدي بها.

أول ما وعيت حبل يتموج أمام ناظري، ممدود بين نخلتين في فناء الدار، أقف وسطه مستغيثاً، يداي مقيدتان، ينهال علي الضرب، وأظل معلقاً حتى انتصاف الليل.

طوال الليل لا أشتهي النوم، كانت نفسي تقفز من جسمي، أراها ترتفع إلى سقف الدار فأنتصب ممسكاً بها، أعود بها فتعاود القفز، وأقضي الليل بطوله مطارداً لها. حتى إذا أطل الفجر برأسه، خرجت أحتال على لقمة عيشي برأس هنا ورأس هناك، بالضرب بالسياط، والصلب على جذوع الأشجار.

كنت أخرج لوحدي مشمراً عن ساعدي رافعاً مئزري، منطلقاً في الشوارع، لا أقف حتى تكاد نفسي تخرج من فيّ. كانت لعبة تعجبني، أصل إلى ذروة المتعة وأنا مستلق على الرمل بين الحياة والموت، تتراءى لي أشباح كثيرة مختلفة الأشكال والألوان. حتى رأيته أعلى النخلة يرمقني بعيني غراب، حاولت الهرب لكن قدمي تسمرتا.

نزل كما تحط بومة ضخمة، عانقني وشيئاً فشيئاً أحسست بالهوة تحت قدمي تزداد اتساعاً، انتبهت من النوم. كان وراءه عبد أسود منتن الرائحة، يعض على أسنانه ورغم ذلك عانقته.

سخرت من النجوم والأفلاك، انتبذت وإياه مكاناً قصياً، ووضعت جمرات خمس في جيب قميصي، أحسست وكأن ساعدي يذوبان!. صارت الحلة التي ارتديها فضفاضة على جسمي، والعصا التي تشبه وجهاً أحرقته بالنار تغير لونها، واللقمة التي أحاول أن تلج من فتحة فمي تتحير في عنقي، ولا ثقل لساعدي.

حاولت الهرب دون أن أنتبه إلى دود يقتفي خطواتي، أركض محاولاً اللحاق بقافلة أو مزمعاً رمي نفسي في قعر بئر، فيما الدود يزداد جرأة وشراسة.

وقفت متعباً عند جدار قديم، فأحسست بالدود للمرة الأولى. كانت عيناه تنفرجان عن غابة لا أشجار فيها، يتقدم بطول جسمي شرها محموم، تسيره رغبة في اختراق جلدي.

في كل دقيقة تمر كان الدود يتخلق من جديد جنوداً يبحثون عني في كل مكان، لا أرض أمكنني الوقوف عليها، ولا زاوية اختبأت في ظلالها، ولا بيت أشرع أبوابه لي. وأخيراً تراءى لي كوخ ركلت بابه بضربة واحدة فتهاوى، تطلعت ناحيتي امرأة، خنقتها دون فرصة للصياح. أصلحت الباب وسددت النوافذ، وانتظرت!.

«حوش» البيت

البيت عند زاوية الحي يعرفه الجميع. إنه لأرملة عجوز طيبة معروفة بحسن الخلق. فارقها زوجها وطفلها مازال صبياً. وهو بيت لا تقع العين فيه على أي شيء مرتفع الثمن يسول السرقة.

البيت على عهده، هادئ ساكن، لذا لم يشعر الشاب بأي شيء مختلف، رغم أنه يراه للمرة الأولى بعد غياب عامين كاملين.

فتح الباب بتؤدة بعد منتصف الليل، فطالعه الممر الطويل المفضي إلى الباب الداخلي، فيما تقوم غرفتان متقابلتان كانت إحداهما غرفته أما الثانية فتنام فيها أمه. ورغم طبعه الجاف أحس برغبة جارفة في البكاء، ورغم تصلبه لم يستطع كبح دموعه.

كان «حوش» البيت معرضاً لذكريات جميلة، كان يعيش فيها سعيداً. ولم يكن هناك ما يدعوه إلى الخروج عن طوق الأسرة، غير أن رفقاء السوء لم يتركوه؛ وسرعان ما تعثرت قدمه بمسالك وعرة، كانت نتيجتها أن عد من أهل السوابق!.

هو يشعر برغبة عظيمة للقاء أمه، لكنه يخشى هذا اللقاء، ولايزال يتذكر آخر لقاء بينهما حين تركهما الشرطي لوحدهما، مصوباً له نظرة تأنيب أن ترك أمه المريضة تعاني ما تعانيه لكي تراه.

ألقى بنفسه في حضنها، لكنها تمالكت نفسها، محذرة إياه من غضبها. وطوال عامين لم تزره ولم تسأل عنه حتى. لكنه عاقد العزم هذه المرة على التوبة ولابد من رؤيتها والتمرغ على رجليها حتى تغفر له.

فتح باب الغرفة، ووصل إلى سمعه صوت أمه وهي تسبح الله تعالى. كانت على سجادة الصلاة تحرك حبات المسبحة بهدوء. هم بأن يقذف بنفسه عليها، لكنه تراجع، وخرج صوته مختنقاً بعبرته...

- كيف أنت أمي؟.

لم تنطق بكلمة ولم تلق إليه بالاً. أعاد السؤال فلم تلتفت إليه. طالعها بعينين حولهما السهر إلى بركتين جافتين من الماء...

- أمازلت غاضبة مني؟ أقسم أني جئتك تائباً.

لكن أمه لاتزال في تسبيحها...

- ألم يخبروك أني سأخرج من السجن هذا اليوم؟ ألم تشتاقي للقاء ولدك؟

لكن أمه لم ترد. ألقى بنفسه على قدميها منتحباً، فانتبهت وبدأت بالتلفت يميناً وشمالاً وهي تصيح:

– أم جاسم، أم جاسم.

دخلت امرأة مسنة الغرفة فزعة واحتضنت العجوز. التفتت إليه فوجدته مسنداً ظهره إلى الجدار، تكاد عيناه تخرجان من حدقتيهما. عرفته على الفور فطالعته بعينين غاضبتين.

– منذ متى؟

– منذ آخر مرة زارتك فيها، رجعت إلى البيت كما تراها، لا ترى ولا تسمع.

سقط إلى الأرض في إعياء، وأخذ في البكاء، كأشد ما يكون.

بثين

مكان الروح ليس هنا. تقلبت على الجمر، كطائر ترك أنثاه للضياع وهرب إلى البعيد. لا تلوميني يا بثين؛ كنت كمن سقط من عل. كانت عيناك تبتسمان، ترتجفان، وأنا أحاول اللحاق بهما.

بثين.. هل حاولت أن تنظري من سطح الدار إلى البعيد. عيناك هذا الحلم الشارد أكبر من أن أصل إليه. إنه مدى لا نهاية له. أما أنا فسؤال أكثر ما تطلع إليه أن يبعث بي إليك.

أفلت نجوم الليل ولا أزال بمكاني. أتطلع إلى النخلة الوحيدة، فأحس وكأن رئتي تتمزقان، وأساورك الفضية في جيبي تكاد تتحول إلى نمل أبيض. حتى القرط الذي أهديتك إياه! لايزال يشمخ في صمت، متحدياً عيني، مترسماً سبيل من سبقني.

بثين. لا تحسبيني واعظاً تاه في زحمة الكفار. كنت كقارب لجأ للشاطئ صباحاً، فقذفته الريح إلى جزيرة لا رمل فيها. أية رائحة معتمة أوصلتني إلى شجر لا ورق فيه، وإلى موت متخثر مثل نافورة لا ماء فيها. أية مرآة نبذت ضوءاً في الغسق فاختلجت كمن يئد ابنته في التراب.

بثين. مال بي المكان وحركني موج لا نهاية له؛ كنت أحد عشرة سلكوا الطريق نفسه، وتوهموا النجاة.

كانت الطفلة التي حلمنا بها، تتراءى لي مثل غزالة تنتظر من يسرقها. أي روح تبدت من خلال الشفق، فدفعت بي إلى مكان الجان. أي عنق أبيض تفجر بالدم أغراني أن أتنكب الطريق.

رأيتهم ينتهبون الأرض يبحثون عن أول من سلك الطريق. تراءيت مثل خيمة ترتفع إلى السماء ثم تهوي. التقطتك عندها فوجدت في كفي مالاً كثيراً، أستر به عورتي، وأداهن به ما تبقى من أيامي.

بثين.. كنا جلوساً نعاقر الخمرة، نكاد نتمزق مثل موت يأخذ فرحه من عيون الغيد. كانت وجوه من معي تشبه من سلك البحر دون ربان. أما أنا فكنت أخفي وجهي عن عصابة كانت الثقوب في أجسام أصحابها قد ساحت على الأرض، وملأت المكان وتسربت إلى خارج الدار.

كانوا يلهون بانتظار الموت. كانت آذانهم مثل جمرة أيقظت من نومها للتو. ذكرتني برائحة ابن آوى حين ينقلب إلى ذئب، حين رأيتهم يتباهون بقتل أول من سلك الطريق.

كانوا يضحكون وكانت مردة سود تتراقص حولهم، وحين أمسك الأبله، أواه يا بثين بفتيلة المصباح كي يشعل النار، أطبقت عليه النار، فررنا منه، فاندفع إلى خارج الخيمة. جرينا وراءه.

ألقينا عليه كل ما لدينا عل النار ترفق به. لكنه ألقى بنفسه في البئر. وبقيت النار تشتعل في جسمه.. حتى طفا على سطح الماء جثة هامدة!.

بثين. أعيذك أن تتسربلي بريح لا راية لها. سأظل أبكي حتى ينخلع وجهي عن جسم لا يشبهني.

رحلت كل خيامهم وبقيت وحدي. لا مكان لي أجلس فيه. ظللت واقفاً حتى تفسخت رجلاي، واشتعل جسمي حتى بدأ يأكل ما تبقى من حلمي. حتى أطل علي في صحراء لا نهاية لها.

أخذني إلى أرض كل أشيائها حمراء. ارتفع بي إلى سماء تكاد تذبح أبنائها. كنت أرى النار تفتح فاها. ارتضيت أن أظل في السماء، يأكل أضلاعي البرد. تسليت بذلك عن أن يلقى بي في النار. لكنه أسقطني. حاولت التشبث به دون فائدة.

ألفيت جسمي يتحول شيئاً فشيئاً إلى لا شيء. كنت أصرخ دون أن يسعفني أحد. كنت أناديك، ولم تسعفيني. كنت أتأمل في كفي وهما تتحولان إلى ضباب، ولم تحاول مساعدتي.

حين استيقظت خرجت فوجدت الناس؛ جميع الناس ينظرون ناحيتي، ويهربون. كانت صرخاتي قد أفزعتهم. كانوا يشاهدون اثنين يجريان. واحد إلى جهة اليمين وآخر إلى الشمال. كان رأس ينهدل على كتفي، وآخر أمسكه بأصابعي. هربت فوجدتني أدخل في النفق نفسه، ارتفع إلى سقف السماء ثم يلقى بي إلى النار.

أواه يا بثين. ما أصعب أن أرحل عن زمن كنت فيه طفلاً لا يعي من الحياة شيئاً. ماذا لو رأيتني الآن؛ أكنت تشتاقين إلي كما يتعذب هذا الجانب من قلبي؟! أكنت تشترين بقية الحلم الغارب وراء الليل بساعة أشتريها بما تبقى لدي من عمر؟! ماذا لو رأيت وجهاً أوجعته النبوءة فأمسى تتدافع فيه الصحارى؟ أكنت تحبينني كما يتمزق هذا الوجه؟!.

طائر اللوهة

مصباح يضيء المكان، إنه يصنع دائرة وسط العتمة، ويرتمي على الكراسي وأرض الكوخ بهدوء، كما هو حال أمواج البحر هذا المساء. إنها تقترب من الشاطئ في تؤدة كأنّما تتسلّى.

يقوم من على الكرسي، ينزل من السلّم الصغير بهدوء، يسير ناحية الشاطئ بتراخ، يمسك بحجر ويرميه بقوة إلى البحر، يمسك بثانٍ وثالث، ثم يتوقف فجأة مطالعاً البحر وامتداده.

أين القمر هذا المساء؟ يرفع عينيه إلى السماء فيجده منطوياً على نفسه. يخرج علبة السجائر، يشعل واحدة يقرّبها من فمه، نفس واحد ويضج صدره بالسعال، يرمي بالسيجارة، ثم يرمي بالعلبة كاملة.

يسير في طريق مستقيم على طول الشاطئ...

- أبو علي كيف أنت؟

يلتفت فيجد خليفة جالساً على أرض الشاطئ...

- يبدو أنك تكبرت علينا؟

يبتسم ويتجه ناحيته ويمد يده...

- ما عاش من تكبّر عليك.

يصافحه ويدعوه إلى الجلوس. لحظات ويعاوده الشرود...

- ما بك يا جاري؟

يطالعه بعينين حزينتين...

- أما زال أمر علي يشغلك؟

يركن إلى الصمت...

- ربما تعود في أيّة لحظة

يسألة فجأة...

- هل لديك سيجاراً؟

يتناول سيجارة...

خليفة مازحا:

- حاسب على صحّتك؟

يأخذ نفسا فيثور صدره ويبدأ بالسعال. يمضي وخليفة يشيعه بتأثر.

لا تزال رائحته تملأ أنفي، ابتسامته، ضحكته، أمّا هي فحسبي الله ونعم الوكيل! حجاب

وصلاة وكلمات خدعت حتى أمي!.

صوت الجلكسي يقطع عليه تأملاته...

– أين أنت يا أخي؟

فترة صمت...

– ما بك؟

– ...

– أنا أنتظرك في الكوخ

يصل الكوخ، يرفع رأسه فيشاهد حسين يدخن وهو يطالعه بعينين متفكّرتين، يركب السلم، يلقي السلام، ثم يلقى بنفسه على أول كرسي، يعتصم بالصمت...

– أعطني سيجارة

يرمى حسين علبة السجائر، يأخذ واحدة، ينفث فيها فينفجر صدره بالسعال...

– حتى متى؟

– ...

– أمضيت عاماً كاملاً وأنت على هذه الحال

– ...

– لقد ضعف جسمك.. إن الجميع يتحدثون عنك

إن حزني أكبر من أن تخففه كلماتك يا صديقي، لولا خوفي من الله لألقيت بنفسي في البحر، هربت به اللعينة، ولست أعرف أين هو ولا حتى اتصال يطمئنني على حاله!.

يرن جلكسي حسين، يقوم من كرسيه وينزل من على السلم، ويتركه لحزنه يطالع طائر «اللوهة» يعبر السماء.

ساعي البريد

عمل أبي ساعي بريد زهاء خمسين عاما. عمل بجدّ واجتهاد رغم مرتّبه الضعيف، وصحّته المتواضعة. حتى بعد أن أحيل إلى التقاعد، إنضم لإحدى شركات البريد، فكان يوصل الرسائل لأصحابها بقدر ما يسعفه عمره المتقدم، حتى سقط فجأة في الشارع ولحق بالرفيق الأعلى.

حزنت كثيرا لموت أبي، أغلقت باب غرفتي وانقطعت عن الناس، ووحدها أمّي كانت البلسم الشافي لجراحي. كنت الأكبر رغم أن عمري لا يجاوز الثامنة عشرة!، كان هذا أمرا غريبا، فكلّ من كان يشاهدني بصحبة أبي يحسبني حفيده لا ولده البكر.

بعد موت أبي؛ انقلبت حياتي رأسا على عقب، فلم يعد الأمل بالدراسة في الخارج، سوى حلم بعيد المنال. فالحياة التي سأعيشها تقررت لي، ولم يكن لي أن أخالفها؛ وأنا الشاب الذي نشأ وسط أسرة محافظة، تضع رضا الوالدين محلّ رضا الله تعالى، وتعتبر مخالفتهما ذنبا لا يغتفر.

لم أدهش في الواقع، عندما أخبرني صديق أبي أبو نعمه، أن وظيفتي محفوظة في الوزارة، وأنّ أبي رتّب لي كلّ شيء، بمجرّد انتهائي من الدراسة الثانوية، إذ كنت أعلم أن أبي –رغم رغبته في أن يراني إنسانا مميزا في وظيفة تليق بصاحب عقل كبير كما كان ينعتني– كان يدرك أن العمل هو مستقبلي، وأنّ الحياة لن تجود علي بهذا الحظ الكبير، كما كان شأن الأغنياء الذين يمتلكون المزارع الكبيرة قرب البحر.

ها أنا ذا أعمل في الوظيفة نفسها التي قضى فيها أبي جلّ عمره، متنقّلا من قرية إلى أخرى ومن بيت لآخر، تلفحني الشّمس بنارها صيفا، وتجمّد البرودة الدم في أصابعي شتاء. أترحّم على أبي كلّما أحسست بالتعب، وبالنظرات السّاخرة يطالعني بها المتكبرون، ليس من الأغنياء وحسب، بل حتّى من أولائك الذين يعيشون في المستوى الذي أعيش فيه. غير أنّ أكثر ما كان يرهق قلبي سماعي عن طالب رجع من الدراسة في الخارج. كنت أمتلأ غيظا، فأنهال على نفسي سخرّية، لاعنا حظي العاثر.

حدث يوما أن طرقت باب أحدهم، لأسلّمه البريد، ففتح لي الباب شاب سرعان ما عرفت فيه زميلي في الدراسة، ورغم حفاوته بي، وإصراره على الاستراحة في بيته ولو لخمس دقائق، إلا أنّي وما أن خرجت؛ حتى هززت رأسي ساخرا من قدر أعمى؛ كان يتحدّث عن بيروت وعن جمال بيروت، وعن جامعة بيروت، عن شهادة المحاماة التي سينالها قريبا، وكنت أصغي إليه مبتسما، فيما رأسي تكاد تنفجر لهول الضغط عليها.

أحسست وكأنّي لا في الأرض ولا في السماء، ولم أشعر هل أنا أتلقّى أشعة الشمس أم قطرات المطر! كان الألم قد بلغ مبلغا تعذّر أن أتعايش معه. هربت بعيدا وانتبذت مكانا قصيا، وجلست على الأرض في شبه أعياء، ورحت أخرج الرسائل وأتأملها في سخرية.

وصلت البيت، دخلت غرفتي، وأغلقت الباب، واستلقيت على سريري، وأنا ذاهل عن كل شيء، سوى الوساوس والأفكار التي عجزت عن صدها؛ لم يكن الشاب الذي استقبلني ذكيا ولا مميزا، بل كان غبيا لا يستوعب جيدا، وطالما نهره المعلمون، بعكسي أنا المقدم لديهم. لم تكن هناك مادة واحدة تستعصي على عقلي، حتى الرياضيات واللغة الانجليزية وهما أكثر المواد صعوبة، كنت مرجع التلاميذ فيها.

تذكّرت عندها ابتسامات مدرّس اللغة العربية الفلسطيني الجنسية، مثنيا علي أمام مدير المدرسة، متنبئا لي بنيل درجة الدكتوراة، وبمنصب كبير في جامعة مرموقة، تذكّرت عندها المسابقات التي كانت تقام في المدرسة، وكيف أن التلاميذ متى علموا باشتراكي فيها امتنعوا عن المشاركة، بل التمسوا مني تركها لهم، وكيف أني كنت أتسلّى بإغاظة بعضهم، فأشارك نكاية بهم وأفوز بها.

لم يحدث أبدا أن تخلّف ترتيبي عن الأول أو الثاني، منذ الأوّل ابتدائي وحتى السنة التي تخرجت فيها. ومع ذلك ها أنا أستلقي على فراشي الفقير، في الغرفة المعتمة الكثيفة الرطوبة، يتفصّد العرق من جسمي، بعد جولة طويلة أوصل فيها رسائل البريد لكل من هبّ ودب من الناس، مقابل راتب بالكاد يكفي لتأمين الطعام والشراب لأسرة ضعيفة الحال.

ما أقسى ذلك وأمرّه على إنسان ذي طموح، يرغب في حياة راقية تنتشله من الفقر والحاجة، وتفتح له ولأسرته مجالي الحياة الرحبة من بيت نظيف وطعام صحّي وتعليم متقدم، لكن أنّا لي ذلك وأنا الشاب الذي نشأ وسط بيئة فقيرة معدمة متخلّفة، لا تتناول من الطعام سوى الرز الأبيض والسمك وأحيانا باللبن! أنّا لي ذلك وأقصى أمنيات شباب أهل قريتي وظيفة كالتي حصلت عليها!، أنّا لي ذلك وأنا أرقب أكثر من فتاة تمشي عرجاء في القرية، بعد أن فعلت أيدي «المرّاخة» الجاهلة فعلها في قدمها؟!.

تفّاحة من الجنة

هذه السيدة الفاتنة أعرفها، إنها تبرق في ذهني كما يبرق مصباح في بيت عتيق. ومنذ أن فتحت باب السيارة وولجت داخلها، وما ترسّب من ذكريات يحاول أن يطفو على السطح. غير أنّ للأحزان سطوتها، وللأوجاع مكانها المتقدّم، فلا تقبل بآخر يزاحمها.

إلتقت عيناي بعينيها. إبتسمت.. كانت أسنانها بيضا...

- كيف حالك عيسى؟

رفعت حاجبي مستغربا...

- تعرفيني؟!

قالت وابتسامتها تضيء ليلا حالكا في سواد أيامي...

- لم تتعرف علي إذن؟

- سامحيني.. العتب على السنين؟

- لا تزال فتيا كما رأيتك قبل عشرين عاما

عشرون عاما، ما أبعد صورة الحياة بالأمس، عن شكلها اليوم. كنت في بحبوبة من العيش، وجميع بنات الحي يتمنين أن أكون زوجا لهن...

- ألا تذكر رباب زوجة الحاج يعقوب، جارتك القديمة في البيت الكبير القريب من المقبرة؟...

إعتصمت بالصمت، وبعد قليل ابتسمت. لقد طفت تلك الذكرت جملة واحدة. كانت أجمل امرأة في الحي باعتراف الجميع. كانت زوجة للحاج يعقوب، التاجر الثري، الذي شغف بها حبا، فأغرقها بالمال والحليّ وبكلّ ما ترغب به امرأة...

- ما شاء الله.. مضى وقت طويل؟

- لكنك نسيتنا!

- اعذري رجلا ابتلى بزوجة واثنتي عشرة نفسا

- تزوّجت إذن؟

- تزوجت ولله الحمد وأنجبت من البنين والبنات ما يملأ سلّة خضار.

ضحكت، ما أجمل هذه الملامح، وهذا القوام، رغم مرور السنين لاتزال امرأة مكتملة الأنوثة.

- أودّ أن أسالك سؤالا؟

جاءني صوتها مختلفا هذه المرّة...

- سلي ما شئت؟

- ما أخبار الحاج يعقوب؟

الحاج يعقوب! ألا تعلم ما حلّ بزوجها الثري، صاحب العقارات ومحالّ الأثاث؟ من كان الجميع لا يعصي له أمرا، إلاّ هي؛ هذه المرأة الجالسة في السيارة، تأمره فيطيع. تعلّق بها منذ أن وقعت عيناه عليها، وأطارت الريح حجابها. طلب يدها بالشروط التي تضعها، وبالمهر الذي يليق بتفاحة من الجنة!...

- كيف لا تعلمين بحال الحاج يعقوب؟!

- أنا لم أرجع إلى البحرين إلا منذ ستة أشهر فقط

- أتعنين أنك لم تشاهدي البحرين طوال عشرين عاما كاملة؟!

- بلى...

- وأين كنت طوال هذه المدة؟

- عند أهلي في العراق

- لكن الحاج يعقوب مات في البحرين!

قالت بصوت أشبه بتنفّس المصدور:

- أمات الحاج يعقوب؟!

- ألا تعلمين إن كان زوجك قد مات أم لا؟!

- لكنني انفصلت عنه!

- منذ متى؟!

- منذ الرحلة الأخيرة التي جمعتنا وإياك

هكذا إذن؛ لقد حزمت أمرها منذ تلك الرحلة؛ وعاد المسكين لوحده دون زوجته. كنت أتساءل عن التغير العجيب الذي طرأ على مسلكه، وسبب غيابها عن جنازته، وها هي الاجابة تشخص أمام عيني...

- هل لي أن أسأل عن السبب؟

- أكنت تودّ مني العيش دون أبناء طوال حياتي؟!

إنتابني غضب شديد، ورثاء عظيم للحاج يعقوب...

- أكان قرارك صائبا؟

- ماذا تقول؟

- سألتك.. هل تعتقدين أنك كنت على صواب؟!

- وماذا كان بيدي؟

- كاد الرجل أن يعبدك؟!

- كنت أودّه أيضا؟

- لقد منحك كل شيء!

- إلا الولد!.

- لم يكن ذنبه أنه لا ينجب!

لم تجبني.. كانت عيناها قد امتلأتا دموعا، فبدأت البكاء. لقد استغلت طيبته المسكين، فرجعت إلى أهلها محمّلة بالمال والحليّ الثمينة والملابس الفاخرة، وعاد هو بالمرض والكآبة...

قلت إمعانا في تعذيبها...

- أتعلمين ماذا حلّ بالحاج يعقوب بعد تلك السفرة؟!

- ماذا حلّ به؟!

- أصبح يهيم على وجهه في الطرقات!

إهتز جسمها لهول الصدمة...

- بلى، أمّا آخر كلمة نطق بها فهي رباب.

سلحفاة ضلّت الطريق

وهكذا؛ ها هو الحال يصل به إلى عرض سيارته للبيع وهي آخر ما يملك. ركنها في السوق إلى جانبها شقيقاتها علّ مشتر يغريه ثمنها البخس. ورغم علمه بما في السيارة من أعطاب، إلا أنه كان يأمل أن ينجبر أحد بلونها الأحمر الجميل.

إلتفت الدلال إليه بعد أن وضع ابتسامة باهتة على فمه...

– ستجد مشتر الاسبوع المقبل إن شاء الله.

لكنه كان بحاجة ماسّة للمال، فصاحب العمارة لن ينتظر أكثر، صحيح أنه لا يستطيع إخراجه من الشقّة، لكنّ لهؤلاء الملاك أساليبهم في تحويل حياة المستأجرين إلى جهنم!.

ساق سيّارته وقد أظلمت الدنيا في عينيه؛ لم تكن هناك سوى خمس سنوات ويحال إلى التقاعد، لكنّ الشيطان الرجيم، ورائحة البيرة والأصحاب، أيقظوا في نفسه المارد الذي لا يقهر!.

لو أنه كان ابنا لعائلة مرموقة مثلا أو صاحب مال لهان الأمر، لكنه فقير وأمثاله متى توقفت رواتبهم توقفت معها قلوبهم!. وها هي السيارة تقف به وسط الشارع مطالبة بالماء بعد أن أفرغته مجددا، وها هي المشكلات تسنّ أسنانها بقوة هذه المرّة، وها هي ملامحه تقطّب ويشتد غضبه، لاعنا الحال والفقر وقلة الحيلة. وها هو أحدهم يتوقف لمساعدته فيسقي سيارته الماء، لكنه سيضطر لركن سيارته في أقرب مكان لتنتشلها سيارة أخرى.

ومضى الوقت بطيئا، أشبه بسلحفاة ضلّت طريقها وسط شارع مليء بالسيارات، حتّى ترفّق أحدهم فأقلّه إلى شقّته، بينما بقيت السيارة شاهدة على عجزه وقلّة حيلته.

ألقى بجسمه على الفراش، وأحسّ بالخدر يشمله، فنام ولم يستيقظ إلا في الواحدة ليلا؛ تطلّع في الجوّال، ثمّ قام متثاقلا وفتح باب الشقّة فدلف رجل في الثلاثين من عمره ضخم الجسم، دخلت معه رائحة السيجار...

– أين كنت طوال اليوم؟ اتصلت بك كذا مرّة

– وأين كنت؟ كنت أحاول بيع «المزيونة»

ثم تناول علبة السجائر، ونفث دخانا حارا من صدر معتاد على الدخان، ثم راحت عيناه تنصبان بغيظ على الصديق...

– تزعم أنك صديقي ثم لا تقرضني

لكنّ الصديق لم يجب بل ابتسم ساخرا...

– تعلم مقدار حاجتي للمال ومع ذلك لا تمد لي يد المساعدة!

– لو ضمنت أنك ستردّها لما تردّدت

– لكنني سأردّها صدقني

قال في نفاذ صبر:

– أين المئتي دينار التي أستلفتها منذ ستة أشهر؟! وأين المئة دينار قبلها؟

– سأردّها لك صدقني

– كيف وأنت لا تمتلك شيئا

– سأبيع سيارتي

– إنها لا تساوي مائة دينار حتى!، هذا إذا بعتها أصلا

ثم ران صمت ثقيل، فكأنه دخان كثيف يغشى العيون، هرب منه إلى داخل المطبخ. وحمد الله أن السكّر لم ينفذ بعد!.

الحجر الصغير

كان رمي الحجر من القوة بحيث قلب القطة على ظهرها، فانفلتت تموء مواءا متواصلا، وتتمرّغ على التراب، وبطنها يهتزّ اهتزازات عنيفة. أمّا هو فانقضّ على الشابين، وراح يكيل لهما اللطمات، وفمه لا يكف عن السبّ والشتم. ورغم تدخّل المسافرين، وانزواء الشابين في خجل، ظلّ الرجل يلعن ويشتم، ويتهدّدهما بالويل والثبور وعظائم الأمور.

ثم ألقى بجسمه على درجات السلّم المفضي إلى حمّامات الاستراحة، وأخرج سيجارة راح يدّخنها وعيناه لا تكفّان عن النظر إلى الشابين بحقد.

كان وجهه لا يزال يختلج تأثرا، من شدّة انفعاله، هازّا رأسه بين الفينة والأخرى، عجبا لقسوة الإنسان!. حين شاهدها تقبل من بعيد، فقام من فوره وركب الباص وتخيّر طبقا جديدا، ثم اندفع إليها وأخذ بمناداتها، حتى استجابت له ثانية فأقبلت تأكل في اطمئنان، كانت جائعة لا شك، وهذا الجنين في بطنها يحتاج إلى غذاء.

ودمعت عيناه، وراح يملّس على ظهر القطة المسكينة، فيما جميع من في الباص ينظروه إليه باهتمام. منذ دقائق فقط، شاهدها تبحث عن الطعام، فقدّم لها من تبقّى من فضلات المسافرين، وما أن أنست له وأقبلت تأكل، حتى انطلق الحجر الصغير، فقلب حالها.

تلك حال غريبة لا يعلم لها تفسيرا؛ فأي ذنب اقترفته قطّة جائعة تبحث عن طعام لها ولجنينها لكي تجازى بحجر في بطنها؟! لكن تيارا غريبا شمله من جميع الجوانب؛ صاح به؛ وما ذنب خديجة لتجازى بالنكران؟! فكأنّ لكمة قويّة وجّهت إلى صدره، ترنّح على إثرها، فوقف بغتة، محاولا أن ينزع من رأسه هذه الفكرة، حتى أنه حرّك رأسه يمينا وشمالا، وأخذ بالقيام بتمارين رياضية، لكن الفكرة شدّت إلى رأسه بخيوط لا ترى.

ترك القطة لحالها، ومضى هاربا من الناس، مختفيا وراء محلّ لبيع الحلوى. أسند رأسه إلى الجدار، وأشعل سيجارة أخرى، راح يدخّنها في ضيق! من أين تفد هذه الأفكار؟ القصة لا تتعلق بالقطة فحسب، فلا يزال بني آدم مفطور على الشرّ وعلى إيذاء الناس، وأنت شخصيا تثير العجب؛ فإخوتك من أبيك لا يزالون أطفالا، ومع ذلك لم تمانع حين طردهم إخوتك من البيت، فلجئوا لبيت خالهم. أليست خديجة أختك ذات الخمسة أعوام أولى بإطعامها من هذه القطة التي تصلك بنسب أو ذكرى حتى؟!.

لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم! للتو كان يشعر بالرضا، عادا نفسه أفضل من الشابّين،

أما الآن فيشعر بنفسه صغيرا وضيعا. بلى وانك لتعلم أن لخديجة أختك وجها وضّاءا وابتسامة حزينة!. انك مقبل من أداء العمرة متحلل من ذنوبك؛ فكيف تعود إلى ديارك وأنت تحمل هذا الذنب الكبير! سأل نفسه وانزوى يبحث عن إجابة، لكن الإجابة حاضرة وأنت من يرفضها!.

سمع صوت الباص يؤذن بالانطلاق، فأقبل في خطوات بطيئة، وعندما حطّت عيناه على الشابين؛ سارع فصرفهما عنها. إن نظرته لهما الآن تختلف عن الأولى، ومقابل وجه القطة يبرز وجه خديجة عذبة الضحكات!.

مساحة زرقاء

كان الموعد قد تحدّد مسبقا، ومنذ الغد لن تكون الحياة كما هي عليه اليوم. أمّا الصحراء فأنسب مكان لمثل هذا الاتفاق، وكذلك الشهود لن تجد أفضل منهم؛ إنهم من زرع هذه الأرض ونبتها...

– أتعلم كم ابنا للشيخ؟

– يشاع أنهم يجاوزون الأربعين

لم أعلّق بكلمة، كانت الإجابة متوقعة، كما هو شأن الاتفاق، عدا أنّ للشيخ أبناء أربعين يقفون إلى جانبه، أمّا أنا فليس لي سوى نفسي أعتمد عليها بعد الله تعالى، ولا أعلم بعد؛ هل ستكون الجبّ عونا أم نقمة تطيح بكلّ ما بنيت!.

توقّف «الوانيت» قريبا من خيمة ضخمة، فتحت باب السيّارة فاستقبلني أربعة من الخدم. تقدّم كبيرهم بوجهه شديد السواد وملامحه القاسية، وثوبه الأبيض الفضفاض. اكتفى بتحيّة عابرة. تبعته إلى الخيمة، كان يقف حارسان قرب بابها.

دخلت الخيمة فوقع نظري على الشيخ وقد تحلّق حوله أبناءه. ألقيت السلام فردّوا جميعا. وقف الشيخ لاستقبالي، فهبوا جميعا وأعينهم تفيض بالإنكار.

هذه المرّة أيضا كنت أتوقّع الحفاوة بي؛ فلم يحدث يوما أن قرّر أحدهم السير في هذا الطريق إلا مضطرا، لكنني اليوم ألجه باختياري، بإرادة صلبة وقلب مفعم بالأمل.

إن هذا الدخول سينتهي بي لا شك إلى واحد من أمرين؛ الخلود أو الفناء. وأستطيع القول أنّ جميع أبناء الشيخ كانوا يرجّحون موتي، كما ذهبت ريح من سبقني، إلا الشيخ الذي عركته الحياة، كان ينظر إلي بعين من خبر معادن الرجال...

– لن تخيّب ظني أليس كذلك؟!

– إن شاء الله

– وأنا عند وعدي ولن ينالك أحد بأذى طالما أنا حي

تساءلت بيني وبين نفسي:

– وماذا لو اخترمك الموت؟

– سنذهب معك جميعا إلى البئر

صحت:

– لا

بوغت الشيخ كما بوغت الآخرين...

– أتودّ الذهاب لوحدك؟

– أنا قادر على ذلك

قال الكهل أكبر الأشقاء وفمه يرسم ابتسامة ساخرة:

– إن زهوك هذا لن يفيدك بشيء

– لكنّي شاب وجميع من سبقوني كانوا متقدّمين في السن

قال الشيخ وعيناه ترقباني بمودة واحترام:

– هل أنت متأكد من رغبتك هذه؟

– بلى.. سأذهب لوحدي وموعدنا الخميس.

لم أنظر للخلف، كنت أعرف أنهم جميعا ينظرون إلي ويتندرون على الشاب المغرور المفتون بنفسه، لكن أحدا منهم لم يحظ باهتمامي سوى الشيخ؛ الشيخ الذي تتناقل الصحراء كلها أنّه صنع ثروته بعد أن اجتاز تلك المساحة الزرقاء من الأرض.

كم هو جميل لو أرث جميع ماله وجاهه، لكن أربعين نفسا تدور حوله دوران في الرحى، لن تمكنني ولو من جزء بسيط من ثروته.

عيدان العصيّ

عيدان العصيّ الطويلة شاهدة على الأمس، كما هي اليوم. لم يتغيّر في الكوخ شيء؛ سوى أنّ المكان الذي كان يشغره أباه، يحتلّه شقيقه الساعة. وكان أمرا متوقّعا أن يجده كما خلّفه، وإن اكتست ملامحه بتجهّم لم يعهده فيه.

أنهى صلاته، فوجده أمامه. إبتسم بهدوء، ثمّ عانقه بحبّ خالص...

– عدت من سفرك؟

– أنا عائد للتوّ

– عساك وفّقت فيما طلبت؟

– أنا والحمد لله في أحسن حال، غير أني محتاج إلى مزيد من بركاتك.

أخذت حبّات المسبحة تتحرّك بهدوء بين أصابع شقيقه، واستغرق في التفكير فلم يشأ أن يقطع عليه تأمّلاته...

– بعد أن ذهبت؛ اختار شقيقنا طريقك أيضا

– إذن فقراري لم يكن خاطئا

– كان له رأيك نفسه

– لقد ترك شيئا لك في تلك الخزانة

وفتح الخزانه فوجد فيها ورقة أخذ بقراءتها، وتبيّن له أنها رسالة يدعوه فيها لزيارته في بيته الكبير. لقد تزوج امرأة فائقة الحسن فاحشة الثراء، وهو يمتلك اليوم من المال والجاه فوق ما كان يحلم.

– لقد حقق حلمه أخيرا

– وأضاع نفسه أيضا

– ماذا تعني؟

قال في نفاذ صبر...

– إذهب إليه، إنه في الناحية المقابلة...

لم يجد صعوبة تذكر في الوصول إلى بيت شقيقه، فجميع من قابلهم يذكرون اسمه بإجلال وإكبار، وكم كانت دهشته عظيمة عندما وجد البيت قصرا ضخما، تحيط به حديقة متّسعة الأرجاء، ومئات الفلاحين يعملون في الحقل، إنه أشبه بحلم قرّر أن يتجسّد على أرض الواقع.

وهناك قابله أخوه بصياح وهرج ومرج، وبعناق طويل، كما في الأيام الخوالي، وأدخله إلى

ايوان فخم، ذي رياش وثيرة، وخدم وحشم، وروائح عطرة، وكل ما تشتهيه النفس.

وتناول كوب الشاي من يد شقيقه، إنه آية أخرى من آيات الجمال...

– أخبرني كيف فزت بكلّ هذا النعيم؟

– إنها دعوة أبيك الرجل الصالح.

وخطرت في ذهنه ذكرى عذبة لأبيه الشيخ الجليل، الغريب في إيمانه وصبره...

– فقد حقق الله دعوته إذن؟

– ما إن خرجت من داره، حتى لقيت امرأة تستغيث من ذئاب ثلاثة، أنقذتها منهم، فخاطبتني في الزواج، أمّا والدها فأكرمني إذ اعتبرني ولده، وها أنا أعيش في بحبوبة من العيش لا ينالها إلا ذو حظ عظيم.

– وكيف حالك أنت؟

– في أحسن حال.. لقد نمت تجارتي بشكل أشبه بالمعجزة

– الحمد لله...

– ثمّ علاه الوجوم دفعة واحدة...

– قابلت أخانا طبعا؟!

– بلى...

– وهل سرّك حاله؟!

قال في أسف...

– الحق أني وجدت رجلا هزيل الجسم عصبي المزاج؟

– ليت الأمر وقف عند هذا الحد!

– فماذا إذن؟

– لقد انقطع إلى العبادة عن الناس والكسب؟

– ومن أين يأكل؟ هل تساعده؟

– إنه يرفض ذلك مكتفيا برطب النخلة الوحيدة

– إنك تبالغ لا شك!

– كلّما دعوته للعيش معي، والتمتّع بما أحلّ الله من الطيبات، كرّر علي كلماته الجافة «لن أشتر دنياي بآخرتي»...

– فالنحاول معا هذه المرّة...

وانطلقا مجدّدا عبر غابات كثيفة وأحراش، حتى وصلا الكوخ، ووجداه واضعا رأسه على

الجدار، يده اليمنى تمسك بالمسبحة، فيما يده اليسرى تمسح على بطنه! فهو مريض وجائع!..

ألقيا السلام، فانتبه إليهما بعينين أمضّهما الجوع والتعب...

– ماذا تريدان؟

– نريدك أن تعيش معنا

صاح مهتاجا...

– أنا لم أسلم من أخيك حتى يبتليني الله بك؟

– لماذا تفعل ذلك بنفسك؟

– لقد طلبتما الدنيا وطلبت الآخرة فاتركاني لشأني!

وحاولا أن يحملاه على رغمه، لكنها تصلّب كجذع نخلة...

– لـن أذهـب معكما، لقد طلبت من أبيكما أن يدعـو لي أن يوفّقني الله لجنّته وليس لدنياكم، فاتركاني لوحدي! أرجوكما.

وندّت عنهما آهة امتزجت بصوت بكائه وهي يرفع صوته بالأذان.

أسراب حمام

في هيئتهـا ما يشـي برغبة في التعرف عليه، لكنها كأنثى! لا تصـرّح، بـل تنطق عينيها بما في قلبهـا!. أمـا هو فلا هو راغب فيهـا ولا هو رافض لهـا، وإنما بين بين. ينظر إلى قوامها المشـوق وحسن وجهها فيرغب في الحديث، ويتذكر الفتيات اللاتي عرف فيتردد في التحدث إليها.

لم تجد مندوحة أمام كيس الثلج هذا! دون الخروج من وراء الطاولة. مرّت بالقرب منه ملقية نظرة سـريعة، فيمـا عبير عطرها يغمـر الأجواء برائحة نفـاذة، نبهت فيه ذكريـات قديمة!. لم تتنحنح، أمر جيد! تلك علامة لا يعرفها إلا من خبر النساء!.

وجدها في الممر المفضـي إلى غرف المؤسسـة، ممسـكة بكوب الماء. كان واضحـاً أنها لم تكن عطشـى. وقف أمامها وعيناه تتركزان على عينيها، فيما العطر ينشـر في الأجواء أسـراب حمام يملأن السماء...

– هل لي بكوب ماء؟

مدت يدها بالكوب، كانت ترتجف... الفتاة من النوع الذي يطلب الحب!. أمسـك بكوب الماء، كانت تنظر إلى إصـبعه. «أهبل أتحسـب أنهن يصـنعن شـيئاً دون تفكير»!. أعطاها الكوب وشبح ابتسـامة يرتسم على شـفتيه. «ليسـت كما ظننت إذن، خانتك خبرتك أيها المغرور»!. ابتسمت... غرّة أيضاً! قصارى ما يمكنه ملاطفتها...

– هل أنت جديدة في المؤسسة؟

ازدردت ريقها... «أليس من الأفضل تجنيب هذه المسكينة سياط العذاب»؟!

– لا.. كنت في الفرع الرئيسي.. وأنت لم أرك من قبل؟

– أنا مندوب عن الشركة قليلاً ما أتواجد فيها.

شفافة إلى هذه الدرجة؟! سرعان ما بان الانكسار عليها!

– لكنهم أبدلوني وظيفة مكتبية منذ أسبوع!.

هذه الابتسـامة أيضاً شفافة آسـرة. «يمكنك الابتعاد إن أحببت! المسكينة لا تعي أنها لا طاقة لها بدخول هذا البحر»!.

شربة الظمآن

احتـاج الأمر منه بضـعة أيام وحسـب؛ لكـي يمثل أمام مدير القسـم. دخل على السـكرتيرة الجميلة لكي تسـتأذن له، فأخذت بالتطلع إليه من تحت نظارتها. كانت المسـكينة في غيبوبة عمّا يقال عنها، وعن العلاقة المشينة بينها وبين المدير!.

قامـت من على مقعدها بحركات مـن اعتاد الدلال والتغنّج، وبعد لحظـات أقبلت وعلى فمها ابتسامة ماجنة.

طرق الباب فجاءه صوته الأجشّ. دخل الغرفة الكبيرة الفاخرة. كان يتطلع في أوراق أمامه وقد برزت صلعته ملفتة للنظر. رفع رأسه وتكلّف ابتسامة وضعها على فمه الكريه ودعاه للجلوس...

- يبدو أنك اتخذت قرارك سريعاً؟

- لا حاجة إلى مزيد من الوقت

- وماذا قررت؟

- إني أرفض عرضك

فتح عينيه دهشة...

- هل أنت جاد؟

- بلى

- أتدرك مزايا العمل في شركة مثل شركتنا؟!

- بلى...

- ومع ذلك ترفض عرضي؟

- أجل إني أرفض عرضك؟!

قام من على كرسيه، وجلس قريباً من المنضدة وأخرج السيجارة الفاخرة...

- أصدقني القول هل تلقيت عرضاً أفضل؟

- لم أتلق أي عرض آخر

نفث في سيجارته الفاخرة...

- هل هي محاولة لزيادة الراتب؟

- أبداً

- ماذا إذن؟

- أنت تعرف وجهة نظري جيداً.

أخذ نفساً آخر...

- أتعلم أنّك أول شخص يرفض العمل معي؟!

- ستجد كثيرين يتمنون خدمتك

- لقد أردت مصلحتك لا غير

- ومصلحتك أيضاً.

ضـحك، ثم وقف مؤذنـاً بانتهاء المقابلة، صـافحه وفتح الباب، فوجد السـكرتيرة تنظر إليه بدهشة ممزوجة باحتقار، أمر يؤكد ما يشاع عنها من أنها تتجسّس على المدير!.

خرج من المكتب دون أن يعنى بالنظر إليها. كان الأمر بالنسبة له سيان، لقد سبق أن طرد من هذا المكان بالذات، وها هو الآن يعرض عليه وظيفة يتمنّاها كل من في الشركة فيرفضها. سبحان مغيّر الأحوال. لو أنّ راتباً مثل هذا عرض عليه من قبل، لبذل ماء وجهه من أجل أن يستمر فيه!.

انفتح باب المصعد، فوقعت عيناه عليها. إنها كما هي لم يتغير فيها شيء، رغم مرور أكثر من سـبعة أعوام، عرفها من فمها الكرزي وعينيها الجميلتين. أمّا هي فتوقفت للحظات ثم افترّ فمها عن ابتسامة كانت فيما مضى شربة الظمآن...

- هل أنت صلاح بالفعل أم أنا واهمة؟

- بلى.. أنا صلاح

- لم يتغيّر شيء فيك

- وأنت كذلك؟

- سبعة أعوام يا ظالم ولا تفكر في زيارتنا؟

- وهل فكرت يوماً في السؤال عني ولو بالهاتف؟!

- أين أراضيك الآن؟

- في السماء والحمد لله

ضحكت:

- أخبرني.. هل ما يشاع عنك حقيقة؟

- وماذا يشاع عني؟

- أنك فتحت مؤسسة كبيرة؟!

الأسئلة نفسها التي أزهدته...

- صحيح

– إذن فأنت ثري الآن؟

– الحمد لله

– ما رأيك أن تتزوّجني؟!

قال ساخراً:

– كل شيء قسمة ونصيب

كان تلك كلمتها كلّما عوتبت على رفضها العرسان. أشاحت بوجهها غضبى، فيما نزل على السلّم.

سيجارة

أشعلت سيجارة أخذت في استنشاقها، قبل أن تجلس على الكرسي المواجه له. في الثلاثين.. جميلة ومتحرّرة. تعرّف عليها في إحدى رحلاته، وها هي اليوم أعزّ صديقاته...

– هل من جديد؟

– بشأن ماذا؟

– بشأن هدى؟

– لا فائدة... إنها تعيش كما لو أنها رجل.

ضحك مطلقاً نخرته المميّزة، قبل أن يلقي عليها نظرة طويلة...

– لكنك جوهرة لا يستطيع تثمينها إلا رجل تمرّس بالنساء.

لماذا لم يتعرف عليها قبل التورّط بالزواج؟ ما يزيد الأمر سوءاً أنه يجد في قربها سعادته!.

– اقترب موعد الإقلاع؟

– لايزال الوقت مبكراً؟

– بالكاد يسعني رؤية بناتي

– إلى اللقاء إذن..

الهواء عليل هذا المساء، وسياقة السيارة في طقس مثل هذا تشعره بالسعادة. السيارة إلى يمينه انفتح زجاجها وأطلّ منها وجه جميل. كان دمث الأخلاق، قوي الشخصية، ساحر الحديث، والنساء يعشقن رجلاً مثله...

– لم نرك منذ مدّة؟

– ليتني أتخلص من وظيفتي...

لم يكن صادقاً، فالعمل فوق السحاب يعني حياة متغيرة، كل يوم في بلد ونساء من شتى الجنسيات والألوان، ما أبهج ذلك! لولا الزوجة الغبية والولد البليد والفتاتين ضعيفتي العقل والجسم!.

وجدها في صحن البيت مع ابنتيها. ألقى السلام وجلس في ركنه المفضل حيث يستطيع التدخين...

– ستغادر الليلة أبي؟

– إن شاء الله

- لكنك لم تمكث سوى يوم واحد؟
- هذا عملي.. ما الحيلة؟

تحدّثه وكأنه طيار منذ يوم واحد! ما أقسى أن يذهب العمر هباء بصحبة هذا الغباء!. لم تكن جميلة ولا متعلمة، جلّ ما يشفع لها أنها ابنة عمّة، خلاف التي هواها قلبه، عسلية العينين مكتنزة الشفتين!. أما سميرة، الأنثى المكتملة النضج والأنوثة فشيء آخر. لماذا لا يتزوجها؟! السبيل معبّد، لكنه لا يرغب في ذلك؛ لن يدخل قفصاً آخر!.

صعد إلى غرفته وأخذ بتغيير ملابسه، حين دخلت زوجته وجلست فوق الكنبة...

- جاء خاطب لابنتيك
- للبنتين مرة واحدة؟!
- جارنا أبو نزار، يريدهما لولديه نزار ويوسف؟
- إنهما شابان محمودا السيرة
- كما إنهما يشغران وظائف ممتازة
- ما رأي ابنتيك؟
- يبدو أنهما موافقتان
- على بركة الله إذن
- هل أحدد موعداً؟
- بلى.. ليكن الأحد المقبل.

غادرت الغرفة فابتسم في سعادة؛ أخيراً تنفست الحياة فآذنت بشمس بعد شتاء طويل. لكنها لاتزال همّاً على القلب، لو زال لظلّ يكرع من ألوان المباهج، ويتذوّق من اللذائذ ما يشاء!. سيّما وقد تقدّمت في السن وترهّل جسمها. وحتى يحين ذلك يبقى العوض في سميرة.. الأنيس الذي لا يملّ صحبته، ولا تنتهي مفاجآته. ذات العينين الآسرتين، والنظرات النافذة إلى القلب، والفم الكرزي الجميل الذي يطلق أنغاماً عذبة وكلمات كأنها البلسم الشافي.

حدوة الحصان

في أمر هذا الشاب يتعب، يدهش يجن، يضرب أخماساً بأسداس، يشبه من يدفع به عنوة إلى تيّار لا قدرة له على صدّه، فيما يدخله هو عن طيب خاطر ورغبة منه!.

يقول كلّما دهمه أمر بفعل يديه أو شظايا لسانه؛ سيكبر ويتغير، لكنه جاوز الثلاثين ولايزال على جنونه! كان أمله كبير في الزوجة وإن عجزت في الأولاد، لكنه تزوج وأنجب ثلاثة أبناء ولايزال على حاله!.

الحقيقة أنه متيم به، مأخذوذ حتى نخاع النخاع! لا يطيق فراقه ساعة واحدة، يدهشه، ينتشي سعادة ويفور مثل رغوة «كبتشينو» لذيذة، يمتلئ عنفواناً كلّما وجده في مواقفه تلك! قوي الحجة والمنطق، صنعه بيديه هاتين! لكنه لا يترك ساعة له يرتاح فيها. يبكيه عندما يجلس لوحده، ويضحكه عندما يكون معه. سم زعاف لا يعلم إن كان قاتلاً أم لا!. يهرب منه فلا يلبث أن يذهب إليه طائعاً!.

بالأمس كانوا جلوساً بين ركام الصحف يدخنون ويتحدّثون، حين أطلق أحد الزملاء عقيرته في حق زميله الذي «لا يعرف من الكتابة شيئاً، فأنا من يتابع عمله، ولولاي لكان مكانه في الخارج، يتباهى بشهادته الجامعية ولا يستطيع كتابة حرف واحد...».

يا إلهي، أين يمكن الفرار من قدرك؟! أفحتم عليه ألا يذوق الحلاوة حتى يذوق المرارة معها؟! لماذا هو دوناً عن بقية الناس؟ كان يعرف هذا الزميل جيداً، ليس فيه شيء مما وصفه به هذا المتعجرف، المسألة تتعلق بإعجاب الزميلات به، فهو وسيم قسيم سبحان من خلق وصور! فيما يشبه هو حنفية ماء! ومن أين لحدوة حصان أن تحظى بنظرة فضلاً عن الإعجاب؟! غير أنه بعيد عن المشاكل يجهد في الهرب منها هربه من الأسد، لذلك لا يثير أدنى اهتمام سواء من الرجال أو النساء، أما هذا المجنون الجالس على الكرسي إلى جواره، الذي يدخن بهدوء عجيب ويستمع لكل كلمة باهتمام وكأنه يتذوق كل حرف فيها وإن كانت فارغة! فأمره معروف وسياطه لا توفر أحداً، يندفع مثل سيارة دون كابح، أو نمر يطلب غزالته دون خطوط مشاة تعيقه...

- هل قرأتم مقال حدوة الحصان هذا؟

تطلعوا مشدوهين إليه وبدأت الابتسامة تعلوا شفاههم، جاهدين في الإمساك بضحكاتهم، فيما حدوة الحصان صاحب الوجه البشع، وكتلة اللحم المصبوبة كالإسمنت، فبدى مثل بركان ينتظر الإذن بالانفجار، وإن كانت المفاجأة قد جمّدت فتيل القنبلة!...

فرد المجنون الصحيفة وقرأ السطور الأولى... قال:

– بماذا تفسرون؟

أما هو فلزم الصمت؛ يعرفه ويعلم مقدار ما يمتلئ به هذا الرأس من أفكار تغلي إلى درجة الانصهار! سلم بالعجز أمامها فاكتفى بتوقّع البلايا، أما حدوة الحصان فمسكين... احمرت عيناه وخرجت كلماته من بئر مطمورة بالتراب...

– بماذا نفسر ماذا؟

انطلق كالصاروخ لا يبقي ولا يذر:

– بماذا تفسرون أن كل مقال تكتبه يبدأ بـ بماذا تفسرون؟ بماذا تفسرون أنك بعد كل خمسة أسطر تبدأ كتابتك بـ بماذا؟ ألا يدل هذا على أنك لا تعرف الكتابة؟ على فكرة أنت فاشل، وكل كلمة تكتبها تعيدها، يبدو أنك نسيت تعليق المدرب في الدورة!.

كان المدرب العربي قد استعرض مقالاتهم وعلق عليها في إحدى الدورات، وحظي حنفية الماء بالنصيب الأكبر من النقد.. لكن لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم!.

أما حنفية الماء فكانت تجف وتجف، حتى خشي عليها العطب!. والمجنون لا يتوقف، كأنما هو رهان بينه وبين نفسه أن يضيّق حدوة الحصان فتشنق نفسها أو تتعلم ألا تقف فوق أرض غيرها!.

«مشولع»

لماذا تعلو الغيمة ثمّ تهبط؟! لماذا تهبط ثمّ تعلو؟! لماذا ترسل ضوءاً ثم تختفي؟! سأل رفيقه المستلقي على تراب الصخير النّدي، تحت ضوء القمر وسط نسيم مسكر، فزفر ضجراً من أسئلته!.

ليس مجنوناً ولا صاحب كرامات، لكنه يحبّ الموسيقى. ضغط على الآيفون، فانساب الصوت سماوياً، لم يعجبه مستواه، رفعه حتى ضجّ الفضاء به. أحسّ وكأنّ النجوم ترقص معه...

– يا زوربا الطيب.. ليتك هنا لكي تعلمني الرقص؟!...

وقف أمامه وسأله السؤال نفسه...

– لماذا تعلو الغيمة ثمّ تهبط؟! لماذا تهبط ثمّ تعلو؟! لماذا ترسل ضوءاً ثمّ تختفي؟!

– كنت للتوّ أسأل رفيقي قبل أن تشرفني بحضورك؟

رماه برائحة نفاذة أطارت حاجبيه، سقطا إلى الأرض، نزل وركبتهما من جديد!، هو شاب أجرد لا شعر في جسمه من رأسه حتى أخمص قدميه...

– نكاية بك سأرقص...

ظل يطالعه بعينيه اللتين تشبهان نافورتين في بركة واسعة، ثم أخذ هو الآخر بالرقص...

– أتعلم أني كنت غليظاً مثلك!

– أحقّاً ما تقول؟!

– بلى.. كان قلبي يزن خمسين رطلاً!

رد ساخراً:

– وكيف تخلّصت من وزنك؟

أجابه بصوت يشبه صوت المتنبي في حضرة خولة أخت سيف الدولة...

– إنه الحب يا فتى!...

أطلق ضحكة ضجّت لها الأرض تحته، حتى تشقّقت وخرج منها غيلان ثلاثة أشبه بالنمور...

– اركضوا وراء هذا الأفّاق... اركضوا

– «يا سلام عليك يا أخي»... ألا تقبل مزحة أبداً؟!

لكنه ظلّ يعوي.. تحوّل إلى نسر ثم إلى ورقة ثم إلى فهد، ثم إلى قطّة، ثمّ إلى فأر، انتظر الفرصة وابلعه!.

– أمر مدهش أليس كذلك؟!

سأل رفيقه المستلقي على تراب الصخير النّدي...

– ماذا تقول؟!

– لا شيء.. عليك اللعنة من ابن آوى لا خلاق له

– لكنك وعدتني أن نذهب إلى خيمتها

تململ في جلسته... بكى...

– لقد وعدتني وها أنت تحنث بوعدك؟!

صاح غاضباً:

– ماذا يعجبك فيها؟!

– الآن بعد أن حلّقت روحي تسألني هذا السؤال؟!

ضرب كفاً بكف وراح يقفز كالقرد...

– أكلّ هذا من أجل امرأة؟!

– اللعنة عليك.. أنت تعلم أنّي أحبها حقّا!

– وما هو الحب؟

أجابه وكأنّه السير توماس ويات يطلب ودّ آن بولين...

– إنه تلاقي روحين في الفضاء...

أقبل من بعيد كلب ينبح، خاف حتى درجة الغليان...

– لقد أحضرته معك؟!

ضحك لقوله ثم أمسك به ورماه على ظهر الكلب...

– إلى أين تمضي بي يا قبيح؟!

ردّد ضحكته نفسها منذ أعصر سبعة...

– إلى حيث الحب الذي تنتمي!

حاول أن يرمي بنفسه من على ظهر الكلب، لكنه كان موثقاً. بكى، أقبلت فينوس، ما هذا الجسد وما هذا العبير؟!...

– أتطلب مني إنقاذك؟

قال والكلمات تخرج من أقصى القلب:

– لن أطلب مساعدتك أبداً!

ردّت بضجر:

– لي جانب آخر لم تره بعد

– افعلي ما بدا لك

– سأنزل الجحيم فوق رأسك!

– افعلي ما بدا لك...

كادت أن تفحّ نار السموم عليه لولا أنه تذكر عندها الكلمة التي حفظها منذ أن كان مراهقاً...

– أدونيس!

ماذا فعل؟! سقطت من على ظهر الغيمة، تكسّرت أمام ناظريه ثم تحللت. اصطدم وجهه بالجدار، انشق فبرزت قواقع مختلفة الأحجام والأنواع، لكنه كان مستلقياً هناك...

– لماذا تعلو الغيمة ثمّ تهبط؟! لماذا تهبط ثمّ تعلو؟! لماذا ترسل ضوءاً ثم تختفي؟!

– أنت مجنون لا ريب.

ضفّة أخرى

إنها امرأة مدرّبة تدريباً جيداً على اصطياد أمثاله من عشّاق الجمال؛ لقد أرغمته على السفر للمرة الثانية، وهذه المرّة إلى بلدها، حيث الجبال والمناظر الخلابة، وحيث لا أحد يعنى بأمر أحد، سوى صاحب المال، حتى إن الناس وما أن علموا بأنه خليجي حتى هرعوا إليه زرافات!...

- هل أعجبك المكان؟
- إنه مكان مدهش

انشغلت بالتطلع إلى آيات الجمال، بينما أمسك حجراً ألقاه بكل قوّته على الهرّة، ففرّت مرعوبة.

انتبهت، فأقبلت إليه ضاحكة...

- لماذا فعلت ذلك؟
- لقد أشفقت على الفأر!

قالت وهي تزوي شفتيها:

- ومتى ستشفق علي؟!

حرّك يده علامة على الضيق، وابتسم ساخراً...

- حتّى متى تمنّين نفسك بالمحال؟!
- حتى تخرج هذه الصخرة القديمة من رأسك؟

نهض، نافضاً التراب من على بنطاله. أخرج سيجارة أخرى راح يدخنها وعيناه ترنوان إلى البعيد...

- هل فكرت كيف سيكون حال الأبناء.. والبنات على وجه الخصوص؟

ردّت في دهشة:

- كيف سيكون حالهم؟

قال في سخريّة:

- سيكونون مثلك!
- وما في ذلك؟!

ألقى بالسيجارة وتقدم منها، أمسك برأسها بين راحتيه، وقال وعيناه مصوبتان إلى عينيها:

- أنت امرأة غير محتشمة.. وتعرفين معنى ذلك جيداً

نزعت يده بقوة، ورجعت برأسها إلى الخلف في حركة وشت بضيقها...

- متخلّف!

ضحك ساخراً، غير أنّ الهواجس كانت لها سلطتها. حتّى متى يظلّ عازباً يتنقل من امرأة لأخرى، لقد تخطى الثلاثين من عمره، وغداً لن تكون القوة كما هي عليه الآن. المدهش أنه لم يختر هذه الحياة؛ إلا بعد أن اكتشف الوجه الآخر لأبيه...

- هاي.. إلى أين ذهبت؟!
- ماذا تقولين؟
- ناديتك أكثر من مرة فلم تجب!
- يكفي القلب ما فيه من أحزان
- وهل تشعر مثل بقية الناس؟!

لم يكترث بالرد عليها، إنها امرأة شأنها شأن من سبقها، ولولا ماله؛ لما استمرت معه شهراً واحداً، لكن.. لماذا لا يلعب معها لعبة ممتعة... أقبل إليها باسماً، وجلس قربها، مدّ يده إلى شعرها الأشقر. ما أجمل هذا القوام وهذا الوجه...

- سأخبرك أمراً مهمّاً
- ما هو؟
- هل أخبرتك من قبل أن لي إخوة عشرة؟
- ماذا؟!
- بلى.. هذه هي الحقيقة التي أغفلتها عنك
- لكن...
- صحيح.. أخبرتك أنه لا إخوة لي ولا أخوات
- كنت تكذب إذن؟
- وأنت صدقت بمنتهى السذاجة.. كيف لعقلك أن يقبل أمراً كهذا؟!
- وإذن...
- إذن فإن ثروة أبي لن تؤول لي وحدي

ظلّت واجمة لبضع دقائق متطلعة إلى الأرض، لا تلحظ عيناه وهما تراقبان ردّة فعلها. حتى شعّ وجهها مجدّداً...

- لا بأس.. فإن لدى أبوك مال كثير
- ليس للحد الذي تتصورين

- ماذا تعني؟
- إن الأزمة العالمية أخذت منه الكثير
- لا!...
- كما إنه أوكل لأخي الكبير إدارة ممتلكاته، وأخي لا يثق بي على الإطلاق
قالت ساخرة:
- فأنت مفلس إذن؟!
- بالضبط.. لا أملك شروى نقير
- ولماذا أصاحبك إذن؟!
- لأنك تحبينني
- وماذا يفيدني حبك؟!
- عندما تتزوجيني سيتغيّر كل شيء
- لن أتزوجك
- منذ لحظات كنت على وشك قتلي لرفضي الزواج منك!
- والآن سأقتلك إن فكرت في ذلك
ضحك حتى استلقى على قفاه، أمّا هي فأخذت بتوضيب حاجياتها...
- انتظري أيتها البلهاء!
- ماذا تريد؟
- لايزال لدي مال كثير
- لن يغير شيئاً من المعادلة
تركها تذهب ليقينه بأنها ستأتيه بعد قليل. هذه المرأة التي لا خير فيها، طبل أجوف، يعجبك شكله، لكنك لو فتقته، فلن تجد شيئاً فيه، بل رائحة كريهة تزكم أنفك. وبقدر ما هي جميلة المظهر، بقدر ما هي سقيمة القلب؛ لا تستطيع العيش دون أن تفكّر في المال وكيف تنال منه المزيد. تعلم يقيناً أنه يحتقرها في سرّه، ومع ذلك لا تكفّ عن الإلحاح بالزواج.

آخر العنقود

- ما بك أبا ياسر؟
- لا شيء.. مجرد إرهاق
- إنك تنام ساعات معدودة لا تهنأ بها
- ضريبة الجاه الذي أنت فيه
- أنا خائفة عليه بحق
- لا شيء يا امرأة
أمسك بولده آخر العنقود، ضمّه إليه بمودة، متطلّعا في عينيه...
- لماذا لا تبوح بما يقلقك؟
- أمور عادية لا شأن لك بها
- وهل تستدعي الاستيقاظ من النوم، والتدخين حتى بزوغ الفجر؟
- كنت أدخن بشراهة ولاأزال.
«أحتمل الجري مسافات طويلة، يمكنني الوقوف على سطح البيت ساعة وراء ساعة، عاريا معرّضا جسمي لأشعة الشمس الحارة، أو للأمطار الشديدة. هذا الرأس يشبه سفينة مهنتها الإبحار، لو استطاعت اختراق السماء ما تردّدت، لا أرى الأشياء كما يراها الناس، هي نافذة لم تغلق لحظة أمام عيني، وراءها ما وراءها».
«إما أن أكون أو لا أكون، هذا المساء بوابة لتحقيق الأحلام أو للدخول في مضيق لا منفذ له. كفاني عناء السنين الطويلة.. أشباح خضراء وزرقاء، نواح لا يفارق رأسي، وباب يهتزّ أمام ناظريّ، والمدى يشبه عقربا ساما يقترب من قدمي. أنا بالكاد استطعت السباحة وسط الشلال»!.

×××

- سيمر حميد مساء اليوم
- لكنك لم تعلميني
- وهل يحتاج أخي إذنا لزيارتنا؟
- لن يدخل حميد هذا البيت.
«بحر متلاطم الأمواج، هل ألقي نفسي في تياره؟ أم لثلاثة أطفال، خمسة أعوام، لم أرغب فيها بشيء لم يوفره لي عدا راحة البال. أبنائي الثلاثة يجب أن يعيشوا بسلام، سأستلهم الصبر

من كل شيء، يكفيني أنه لا يخونني»!.

«لا أستطيع اغماض عينيّ، أخيرا تقدم لخطبتي، بعد معرفة دامت عامين، ما أجمله وما أبهاه، انه نجم بين الشباب، لم يبلغ الثلاثين من عمره ويمتلك بيتا فخما، وشركة ناجحة وسيارة فارهة، ما أجمل الاقتران به».

×××

– سأضطر الى السفر مجددا

– لكنك قادم للتو

– مسؤلياتي كثيرة

– أية حياة هذه؟ أهذا فندق أم بيت؟

« ترى هل أخطأت؟ عزيز عليك الاعتراف بذلك، لكنك فعلتها وخالفت معلّمك. أنظر إليه كم يبدو سعيدا... يعيش لوحده، يغيّر نساءه كما يغير ثوبا يرتديه، لا زوجة توجع رأسه. علاقات قصيرة لا تخلّف همّا ولا تعوق طموحا».

«هذا الجمال يبهرني، والرشاقة لا تترك لي مندوحة دون الاقتران بها. دع عنك كلام العجائز، أنت أكبر من أن تلوي ذراعك أساطير الأولين، لا فرق بين امرأة وأخرى، جميعهن يعشقن المال، هو وحده علّة شرفهن»!.

×××

– لماذا تبكين؟

– رفض استقبالك

– لا حول ولا قوة الا بالله

– سأزوركم في أقرب فرصة

– سننتظرك دائما

«عيناه متى ترنوان إلى شيء يجرّدانه من أجمل ما فيه! قاريء نهم لنيتشه. يزعم أنه يعرف نفسه لذا يعرف طريقه جيدا. (جميع الناس خدّاع إلى جانب خدّاع... يميلون مع الذئب ويبكون مع الراعي)».

«لا فائدة ترجى منك، طالما حذّرتك من عنادك، وها هو الجحيم قد فتح فاه، تكلمت كثيرا، لكنك تصرّين على رأيك، حسنا.. لقد قمت بواجبي، لكن اسمعي مني هذه الكلمة الأخيرة.. هذا

الشاب جمرة من نار ستحرق كل شيء جميل في حياتك».

×××

– زارتني أمي صباح اليوم

– ماذا؟

– ما بالك أبا ياسر؟

– ألم أقل لا مكان لأخوك وأمك في هذا البيت

– رفضت استقبال حميد

– كنت أعني أمك وأخوك

– وماذا فعلت أمي؟...

– ولا أحد من أهلك أيضا...

(أي محل أرتقي أي عظيم أتقي؟ وكل ما قد خلق الله وما لم يخلق، محتقر في همتي كشعرة في مفرقي). يا إله السماوات، أي أناس قدر لي العيش بينهم؟ اتخذتها زوجة لكي أبتلي بها.. اللعنة على أمها وأبيها وإخوتها»!.

«ستجد ابنتك السعادة التي تسمو إليها جميع الفتيات، سأقيم لها حفلا في أفخم صالة، وسأدعو عليّة القوم لحضوره، لن أبخل عليها بشيء، ستقيم في منزل فخم، وسأسعى لتلبية طلباتها».

×××

– ألو

– كيف حالك بني؟

– من؟

– عمتك أم حميد

– أهلا عمتي

– أودّ رؤيتك بني

– بخصوص ماذا؟

– بخصوص أم ياسر

– أرجوك عمتي لا تتدخلي في شؤوننا

– لكن...

– عن اذنك

«لو ان السماء والأرض أطبقتا علي، لكان أهون مما أقاسيه. الدائرة تضيق حولها ولا أعرف ماذا سيفعل في الغد، انها لا تنام، شاردة البال، عصبية المزاج، تقضم أظافرها باستمرار».

«متحدث لبق، يزن كلماته كأنه يقرأ في كتاب، في عينيه بريق طالما تمنيته في رجل اقترن به، لا بأس... ان ابنتي هذه جديرة بحياة مرفّهة ناعمة مع شاب لا مثيل له. سيسعدها لا أشك في ذلك. ولكن... ما هذه الوساوس يا سعاد؟!».

×××

– أتحسبني لا أعلم بما اقترفت؟

– من نقل لك الخبر غشّك

– لقد رأيتك بعينيّ

– كانت مجرد زيارة

– وماذا عن بيت الحاج خليل؟

– ...

– أخرج من بيتي.

« هكذا إذن، حتى أبوك كشّر عن أنيابه، يريد أن يلتهمك، ما أتعسها من لحظات ركنت فيها الى قلبك. إعصفي أيتها الرياح وانقلبي أيتها الضغائن نارا تحرق الأخضر واليابس».

«إسمعي.. سأنقطع عن زيارتك شهرا كاملا.. بلى.. اسمعي.. لا تكلميني أبدا والا قطعت العلاقة معك.. سأتزوج.. ما بك؟ هاه.. أكنت تمنين نفسك الزواج؟! إسكتي.. إن نطقت بحرف واحد دفعت بك إلى الجحيم».

×××

– أردت أن أريك سيارتي الجديدة

– ...

– أنظر اليها أليست رائعة؟

– ...

– لدي الآن وظيفة مرموقة، وبيت فخم وسيارة رائعة

– اللعنة عليك من ولد عاق

– لم أعد بحاجة اليك

– قلبي غاضب عليك حتى يوم الدين.

«أحسبني لن أستطيع النوم بعد اليوم، السكري يهاجمني بجيوشه، والضغط لا يترك لي فرصة للسعادة. هل أخطأت في تربيته؟ آخر العنقود، يلف الحبل حول رقبتي بخزيه وعاره»...

«أين أنت يا أم مجيد، لو كنت معي، لهان علي ما أنا فيه، لكنك رحلت وتركت لي آخر الأبناء، شر مستطير لا أستطيع له دفعا، أنا لم أتزوج بعدك، من أجل أبنائي... آه مما أقاسيه».

×××

– كيف... ألم أشرح لك الأمر؟

– بلى ولكني...

– إسمع لم أعد أستطع مساعدتك.

«ما بال هؤلاء؟! بالأمس ترجّاني أبوه، واليوم يرتكب الخطأ نفسه للمرة الثانية، وغدا سيدقّ بابي، وأنا في عز نومي، معتذرا طالبا لابنه الغفران... ليتهم يموتون جميعا...

«أفهم جيدا ما تعني يا معلّمي، إن الحياة قصيرة والفرص نادرة، وليس من العقل في شيء أن يكوّم الإنسان في رأسه كل هذه الأفكار البالية. لن أترك لشيء مهما كبر أن يعيقني عمّا أريد».

الفهرس

البئر........ 7
الدّوّامة........ 13
ابتسامة بريئة 15
الساعة الثامنة........ 17
رائحة البارود 19
الطاووس........ 21
الشبح........ 22
الصمت 25
آمال صغار 27
منفضة السجائر 29
من الطابق الأوّل 31
ذو النّابين 33
عينان شهلاوان 35
طرد........ 37
صورة حيّة........ 38
حمامة فوق سطح البيت 40
حلم معلّق 41
كعكة محرّمة........ 42
النافذة كانت مشرّعة 45
النبوءة........ 47
مجرفتي تحفر عميقاً........ 49
قرص الشهد 52
فلاش باك 54
أربعون 62
علبة السردين 64
الجنازة الصغيرة........ 67
بحر بن «ضب»........ 69
«حوش» البيت 71
بثين 73
طائر اللوهة 75
ساعي البريد 77
تفّاحة من الجنة 79
سلحفاة ضلّت الطريق 82
الحجر الصغير........ 84
مساحة زرقاء 86
عيدان العصيّ 88
أسراب حمام 91
شربة الظمآن........ 92
سيجارة........ 95
حدوة الحصان........ 97
«مشولع»........ 99
ضفّة أخرى 102
آخر العنقود........ 105

صدر للكاتب:

«وديعة وابني مسلم بن عقيل»: قصة أطفال ملونة، دار العصمة 2009

يصدر قريباً:

- «يكاد يفرّ من عنقي» مجموعة شعرية
- «المارد الأسود» مجموعة قصص

العنوان: الدير مجمع 233 – مملكة البحرين
جوال: 00973 33780397
إيميل: jaffaralfarazdak@gmail.com

- رقم الناشر الدولي (ISBN): 978-99958-76-00-5
- رقم الإيداع بإدارة المكتبات العامة: د ع 2013/11304

شركة الوطن للطباعة والنشر والتوزيع

... ولعـن الظروف التـي ألجأته إلى إخفاء وجهه، وسـلوك طريق وعر، والطرق على باب شخص منبوذ من الناس...

- تفضل..

وسـيق عبر مجاز مظلم، في آخره ضوء، جلست عنده امرأة مسـنة، كرهها من أوّل نظره، وضـاعف من كرهه لها اضطراره لدفع المال...

- أرجوك؛ ما اتفقنا عليه فقط بلا زيادة أو نقصان...

أمسـكت المال، ووضـعته تحت فراشـها باحتقار، ثم أخذت نفساً من الشيشة، وقالت في استهانة...

- زبائني يعلمون جيداً مقدار أمانتي.

اللعنـة عليك وعلى زبائنك، متى كان يقرن إلى هذه الحثالة من الناس؟! لكن الأمور يجب أن تعاد إلى نصـابها، ولا محيص عن سـلوك الدرب حتى منتهاه، ثم وضـع الميت في القبر، وغسل اليدين من أثر الدّم.

جعفر الديري